

الحُرِّيَّة عند

الكنس
بوشكين

مع
الفجر
وفنى
ليالى مصرية



تقديم وترجمة

د. نهاد حسن إمام

مدرس اللغة الروسية وآدابها بجامعة عين شمس

الحُرِّيَّة عند
ألكسندر پوشكين

مع
الفجر

وفى
ليالى مصريّة

تقديم وترجمة
د. نهاد حسن إمام
مدرس اللغة الروسية وآدابها بجامعة عين شمس



تقديم

فى مطلع عام ١٩٨٧ احتفلت الأوساط الأدبية فى العالم ، وخاصة فى الاتحاد السوفيتى والحبيشة ، بمرور مائة وخمسون عاماً على رحيل الشاعر الروسى الكبير الكسندر بوشكين .

ان الكسندر سرجيفيتش بوشكين شاعر حق عظيم . لقد استحوذ على اهتمام المثقفين بصفة عامة ، والدارسين المتخصصين بصفة خاصة لما يتمتع به من موهبة نادرة ، تعيش ثمارها نظرة ، تسعد بها الأجيال . عاش بتعداد السنين حياة قصيرة (١٧٩٩ - ١٨٣٧) ، ولكن بحجم انتاجه وقيمة هذا الإنتاج لايزال بوشكين حى حتى يومنا هذا ، ولانوصف بالمبالغة لو توقعنا لاسمه ان يظل لاجيال قادمة قمة شامخة من قمم الفن صعبة المنال او النيل ، ورمزا للسهل الممتنع فى دنيا الشعر .

ويصعب فهم الشاعر او اعماله - كحال الادب والفن دائماً - بدون فهم الظروف التاريخية والاجتماعية التى نشأ فيها ، والتى ساعدت على تكوينه الفكرى والوجدانى . وهو الشئ الذى جعلناه هدفاً لنا فى هذا العرض ، لعلنا نساهم بجزء ولو بسيط فى القاء بعض الضوء على شاعر القرن التاسع عشر ، الذى تحير الكثيرون ممن قرأوه مترجماً فى سر حب وتقدير شعبه له ، هذا الحب ، وذلك التقدير ، اللذان يبلغان حداً يصعب وصفه .

وعلى الرغم من صعوبة ترجمة الشعر ، واختلاف وجهات النظر حول امكانية ترجمته من عدمها ، نجد انه من واجبنا ضرورة نقل المعرفة بصورة او بأخرى ، مع الالتزام الكامل بالصدق مع الاعمال المنقولة روحاً

ونصا . والله المعين على ما اخترنا .

حول نشأة الشاعر : -

ان الكسندر سرجيفيتش بوشكين تمتد جذوره من ناحية الام الى اثيوبيا فجد والدته حبشى ، عمل فى البلاط الامبراطورى الروسى وهو بعد صغير . اهتم به القيصر وقرية منه لذكائه وادبه ، بل لقد جعله ربيبه ، واعتنى كذلك بتعليمه .

أرسل القيصر الفتى الحبشى اللامع الذكاء الى باريس ليتلقى التعليم العسكرى . وعندما عاد ، قلده أعلى المناصب فى جيشه ، ومنحه الالقاب المختلفة ، والثروة الواسعة ، كما زوجه من احدى عائلات الاشراف . أما والد بوشكين فروسى الاصل من عائلة عريقة تنتسب أيضا الى طبقة الاشراف .

وهكذا . . فقد عاش بوشكين حياة ابناء الطبقات العليا المرتبطة بالبلاط . وتلقى تعليمه فى مدرسة " الليسيه " ، التى كان لا يلتحق بها سوى ابناء النبلاء ، والتى أشرف على إنشاءها واعطاها رعايته القيصر بنفسه ، بل وجعل مقرها ملاصقا لقصره الصيفى فى قرية " تسارسكايا سيلو " التى تعنى " قرية قيصر " .

امتدت دراسة بوشكين فى " الليسيه " حوالى ست سنوات (١٨١١ - ١٨١٧) .

لم يكن بوشكين منعزلا تماما عن حياة الناس البسطاء . كانت الحكايات والحواديت الشعبية ، التى تقصها عليه مربيته تقريره من حياة

لم يعيشها . وفى أكثر من مناسبة بعد ذلك أبدى بوشكين إعجابه بتلك الحكايات ، التى دون شك أثرت تأثيرا بالغا على كتاباته ، وعلى تكوينه الفكرى ، وتنمية خياله . أما عن مربية بوشكين ، فيجب ألا نغفل ذكرها وإن نشير إلى مكانتها لديه . لقد كانت إنسانا قريبا ومقربا إليه دائما حتى فى أيام عزلته ، وكتب لها فيما بعد إحدى أرق قصائده بعنوان " إلى مربيتى " .

" صديقة أيامى العصبية والقاسية ،
عزىتى العجوز الواهنة !
فى مجاهل غابات الصنوبر وحدك
منذ وقت بعيد ، طويل تنتظرينى .
تحت نافذة الحجرة الأمامية
تقفين حزينة ، تقفين كحارس فى دورية ،
وفى كل دقيقة تبطء حركة سنابير الحياكة
بين يديك المجدعتين .
تنظرين إلى البوابة المنسية ،
إلى الطريق السوداء المترامية :
الحزن والهواجس وانشغال بالك على
يعتصرون دائما فؤادك . . . (١)
(١٨٢٦)

(١) جميع الأشعار التى فى المقدمة تم نقلها إلى اللغة العربية عن النص الروسى الموجود فى "مختارات من أعمال بوشكين" ، معظمها يتم نشره باللغة العربية لأول مرة .

مرحلة الصبا :-

بدأ يظهر انتاج بوشكين الشعرى المبشر بالموهبة الكبيرة فى فترة مبكرة نسبيا فى حياته . كان لم يزل بعد طالبا فى "الليسية" يبلغ من العمر اربعة عشر ربيعا حين كتب اول قصائده "إلى صديقى الشاعر" . وفى عام ١٨١٤ قرأ بوشكين احدى قصائده - " ذكريات فى قرية القيصر " أمام الشاعر الروسى الكبير " درجايفين " ، اثناء زيارة قام بها الاخير لمدرسة "الليسية" . أثنى درجايفين على القصيدة وتوقع لبوشكين مستقبلا باهرا فى كتابة الشعر . ونشرت هذه القصيدة فى إحدى المجلات الادبية عام ١٨١٥ وهى تحمل لأول مرة توقيع " الكسندر بوشكين " . وتكررت نفس الواقعة مع الشاعر الروسى الكبير "فونفيزن" ، والشاعر "باتيوشكوف" و "جوكوفسكى" . لفتت أشعار بوشكين النظر اليه ، وحاز تقدير واعجاب الجميع فى سنه الصغيرة .

اتقن بوشكين منذ الصبا اللغتين الانجليزية والفرنسية . مما جعل عالمه لا يقتصر على روسيا وحدها . كان يقرأ الشعر بطلاقه بهاتين اللغتين . ولشد ما تأثر بأعلام الرومانسية الاروبية أمثال : "شكسبير" ، "بايرون" ، "سكوت" ، "جوته" ، "فولتير" ، "روسو" ، "راسين" ، "موليير" ، . . وغيرهم . كذلك تعرف بوشكين على الشعر الاغريقى ، والفارسى ، والعربى ، مما سيكون له اثر كبير على مؤلفاته فيما بعد . ومن شعراء بلده كان معجبا بكل من "لومونوسوف" ، "درجايفين" ، "راديشيف" ، "جوكوفسكى" ، "وكرامازين" .

فى هذه الفترة كذلك وقع بوشكين تحت تأثير فكرة " الإنسان الحر " و"الإنسان البطل" المدافع عن الحرية . ويرجع الباحثون ذلك الى تأثير أستاذ الحقوق فى المدرسة ، والى اعتزازه وفخره لفشل الحملة الفرنسية على بلاده عام ١٨١٢ .

بداية حياته العملية فى " بطرسبورج " :

انتهت فترة الدراسة فى " الليسية " . وبدأت مرحلة جديدة فى حياة بوشكين فى مدينة بطرسبورج (ليننجراد حاليا) امتدت ثلاث سنوات (١٨١٧ - ١٨٢٠) . عمل اثناءها فى وزارة الخارجية ، وكانت له اتصالات بجماعات أدبية من النبلاء ذات اهتمامات ثورية كما كانت تجمعهم الصداقة بكثير من الضباط النبلاء الثوار زملاء الليسية وغيرهم .

ظهرت " الحرية " كأحد أهم المواضيع التى يتناولها بوشكين فى أشعاره والتى تشغل فكرة دائما . ونراها تتأكد وتعمق فى هذه الفترة نتيجة للمناخ الذى يحيط بالشاعر . وفى ذات الوقت ، وبنفس القوة كان " يتأكد " و " يتعمق " غضب القيصر من بوشكين . فمن المؤكد ان القيصر كان يتوقع أن يرث بوشكين فى دمائه الامتنان للقيصر ، لكن ماحدث كان العكس . لقد ورث بوشكين دماءاً ساخنة ، ثائرة ، محبة للحرية والتحرر من كل القيود ، ومن رموز تلك القيود أيضا . كان يطالب بالاصلاحات الاجتماعية ، وإلغاء قانون الرق ، وتحرير العبيد (١) .

كان بوشكين يكره حياة المجتمع الراقى " حياة الاضواء " ، ويطلق عليها " دوامة الاضواء " . لم يشعر مطلقا بالسعادة فى هذا المجتمع مما كان له انعكاسه فى اشعاره . لم يصور هذه الحياة مطلقا على انها بهيجة ، مريحة ، تجلب السعادة للانسان بل على العكس تماما .

بدأ القيصر - الكسند الأول - يضيق الخناق حول الشاعر ويشدد الرقابة عليه ، مما ساعد على زيادة سأم الشاعر من " مجتمع وحياة (١) تم إلغاء قانون الرق فى عام ١٨٦١ ، أى بعد وفاة الشاعر بحوالى ٢٣ عاما .

الاضواء " . بدأت الفجوة بينهما بقصيدة " الحرية " التى كتبها عام ١٨١٧ ، ثم راحت تتسع تلك الفجوة وتتزايد طرديا مع تشديد الرقابة على بوشكين من جانب القصر ، وفى نفس الوقت ظهور قصائد جديدة للشاعر تحمل نفس المعنى. ووصلت الأزمة الى ذروتها ، وقرر القيصر إقصاء بوشكين عن العاصمة ، ونفاه الى شمال روسيا .

ولأن صحة بوشكين لاحتتمل طقس الشمال ، تم تعديل المنفى ، بعد المساعى ، الى الجنوب (القوقاز ، القرم ، كيشنيوف ، واوديسا . .) .

فترة المنفى فى مدن الجنوب : -

امتدت فترة النفى فى الجنوب ٤ سنوات (١٨٢٠ - ١٨٢٤) وكان للطبيعة الحنون ، الخلابة فى المناطق الجنوبية من الامبراطورية الروسية أثر كبير على قريحة بوشكين . كان يشعر بالسكينة بالرغم من العزلة والبعد عن الاصدقاء . كان يمضى وقته فى القراة ، وركوب الخيل والاختلاط بالناس هناك لمعرفة المزيد عن حياتهم . كما كان يهتم بدراسة التاريخ ، العالمى والمحلى ، ويتابع باهتمام الأحداث الجارية فى بلاده وخارج الحدود . أما أمتع أوقاته فكانت تلك التى يمضيها فى الكتابة .

أول قصيدة روسية رومانسية كتبها بوشكين تحمل عنوان "أسير القوقاز" . البطل فيها يعتزل " مجتمع الاضواء " بعد ان خاب امله فى مثله ومبادئه ، ويهرب من بطرسبورج " الخانقة " - على حد تعبيره - الى منطقة نائية يلمح فيها طيف الحرية ، يملأه الامل أن يجد فيها هدفا ومعنا لحياته . ان الكلمات التى وردت على لسان البطل عن سأم " حياة الاضواء " وسعيه الى الحرية كانت صادقة الى درجة أنها حققت لبوشكين شعبية وتعاطف ، فاذا كل توقعاته . ان البحث عن الحرية ، وعن الذات موضوعان يشغلان بوشكين دائما فى اعماله فى مختلف مراحل . وحول

نفس الموضوع تقريبا سيكتب فيما بعد قصة شعرية أخرى بعنوان " الفجر " .

كتب بوشكين فى هذه المرحلة من حياته العديد من القصائد القصيرة العاطفية والسياسية . وثلاث قصص شعرية : "نافورة باختشيساراي"، "جافريلادا" ، و " الإخوة - قطاع الطريق " . كما وضع بدايات مؤلفه الاسطورى فى إعجازه الفنى والفكرى معا - القصة الشعرية الطويلة " يفجينى أونيجين " . والذى سيكتبه على مراحل ، فى ثمان فصول تتطور فيها الأحداث والشخصيات ، وفقا لتطور فكر بوشكين والأحداث المحيطة به . فالبطل الذى تحمل القصة اسمه ، له ملامح وسمات أصدقاء بوشكين النبلاء الثوريين ، وعلى لسانه - وبقية الشخصيات بالطبع - يعرض بوشكين بانوراما لحياة عصره ، بكل مافيه من أحداث ، وتفاعلات ، وحياة النبلاء والبسطاء ، حتى لقد أسى النقاد هذه القصة " موسوعة الحياة الروسية " .

تستمر سنوات المنفى لجنوى . . وفى عام ١٨٢٣ ينتقل بوشكين الى مدينة جنوبية أخرى ، تقع على البحر الاسود ، وهى مدينة " أوديسا " . أثناء اقامته فيها يكتب بعض أجزاء من " يفجينى أونيجين " ، ويضع بدايات القصة الشعرية " الفجر " .

وسرعان ماتمكن محافظ المنطقة من استصدار قرار من القيصر بنقل بوشكين امعانا فى مضايقته . وبالفعل فى عام ١٨٢٤ انتقل بوشكين الى قرية صغيرة نائية تابعة لمحافظة " بسكوفسكايا " فى الشمال أسماها " ميخا يلفوسكايا " قدر له ان يقضى فيها عامين . (لكنه سيعود اليها فيما بعد فى ظروف مختلفة تماما كما سنرى لاحقا) .

المنفى فى قرية " ميخايلوفسكايا "

تبدأ مرحلة جديدة فى حياة الشاعر فى ميخايلوفسكايا منذ ٣١ يوليو ١٨٢٤ ضيقت الرقابة خناقها حوله ؛ لقد عُين مراقبا له أقرب الناس اليه - والده - وكان شديدا صارما فى رقابته . حتى ان بوشكين أرسل الى القيصر عن طريق المحافظ يطلب سجنه فى أحد القلاع أو السجون ، لأن الحياة فيها ستكون أقل صعوبة بالنسبة له مما هو عليه . ثم استُبدل والده بأخرون من رجالات الدين والحكومة .

وهنا أيضا - فى " ميخايلوفسكايا " - كان بوشكين يمضى وقته فى الصيد والقراءة ، ودراسة التاريخ وسماع الحكايات ، التى تروىها له مربيته . كتب عنها ذات مرة رسالة الى أخيه يقول : " ان كل حكاية - قصيدة " . كان يسعد بوشكين كثيرا بتلك الاوقات التى يقضيها فى زيارة جيرانه - عائلة " اسو بوفى " . ويرجع الباحثون ان يكون قد صادف حبه الحقيقى عندهم - لأن بوشكين لم يدون اسم حبيبته مطلقا . وفى هذه الفترة نظم أقوى وأجمل أشعار الحب ، وكانت قصائده فرحة ، مرحة ، خالية من المعاناة والأرهاق .

وأتى خريف عام ١٨٢٤ ومعه أتى خريف قصة الحب هذه ، فقد بدأت اشعار بوشكين تناجى ذكرى حبيبته ، التى فرقها عنه قوى الشر . . .

هل تحفظ النفس صورتها الخالدة ؟
 هل عرفتُ نعيم الحب ؟
 هل أضناني طول الحزن ،
 فرحت أسكب الدمع فى صمت ؟

أين كانت ، صاحبة العينين ،
الضاحكتين لى ، كسماء صافية ؟
أتكون كل حياتى ، ليلة أو ليلتين ؟ . .

(١٨٢٤)

وفى مسودة نفس القصيدة " حوار بائع الكتب مع الشاعر " وُجِدَت
الآيات التالية ، التى توضح سعادة بوشكين فى هذا الحب :

مع من سأقتسم الوحى والالهام ؟
معها وحدها . . فقط أمامها
كنت أتنسّم
سرورا رائعا لحب الشعر المقدس .

=====

هناك ، حيث الظلال ، ويديع أوراق الشجر ،
حيث يتدفق تيار السيل الخالد .
كنت أجد القول الملائكى
وانا احترق بظماً الحب .
هى وحدها كانت ستفهم ،
أشعارى غير الواضحة .
هى وحدها فى قلبى كانت كأنها
تتوهج بقنديل الحب الطاهر ! . . .

ثم استتبع بوشكين هذه القصائد الحزينة بمجموعة أخرى من " قصائد
الوداع " يودع فيها المرأة التى احبها ويؤكد اخلاصه لها ، لأنها فى هذه
المرّة قد فارقت الحياة .

ساكن كل شئ - ظلام الليل يزحف على القوقاز
وتبرق النجوم فوقى .
يغمرنى الشجن ، والسكينة ، وحزن نورانى ،
حزنى تملأينه أنت .
انا لك كسالف عهدى ، ويتجدد حبك فى فؤادى
بدون أمل ، ولا أمانى ،
كلهيب الفداء حبى الطاهر ،
وكذا عذوبة الاحلام البريئة عندى (١) .

أرغم بوشكين نفسه على مواصلة الكتابة لاتمام مابدأه ، بالرغم من
الحزن الذى سكن طيات فؤاده . كتب الفصلين الثالث والرابع من قصة
" يفجينى أونيجين " ، وفى اكتوبر من نفس العام أنهى قصيدة
" العجر " .

لقد ظهر فى هذه القصيدة محور آخر يمثل احد محاور أعمال
بوشكين ألا وهو - العالمية . فهو يصف حياة قوم غرباء عنه وعن
غالبية قراءه آنذاك . لقد كانت لديه المقدرة على ان يعيش روح الشعوب
الأخرى . وان يتناولهم فى اطار انسانى عام ، وي طرح من خلالهم قضايا
إنسانية .

والقصيدة تدور حول نفس فكرة " أسير القوقاز " - التى تعرضنا لها
سلفا - فالبطل " صديق الحرية " ، باحث عنها . وعلى الرغم من ان
القصيدة رومانسية الأداء ، إلا أن بوشكين كان قد أدرك عدم جدوى

(١) من قصيدة فوق تلال جورجيا يسود الظلام .

سلبية البطل الرومانسى الذى يهرب من مجتمعه الى الوحدة والعزلة ويكتفى بالاعتراض اليأس .

فى عام ١٨٢٥ بدأ بوشكين يكتب عملا آخر يستند على محور " العالمية " . تراجيديا " مشهد من فاوست " . ان فاوست شخصية وليدة عصر النهضة فى المانيا ، وأصبح غطا للرومانسية فى أوروبا . استلهم الشاعر الالماني " جوته " من الاسطورة الشعبية عن دكتور فاوست تراجيدياه المشورة . لكن " مشهد من فاوست " لبوشكين عمل مستقل تماما عن عمل جوته ، وان كان مصدر الالهام واحد . لقد وضع بوشكين هدفا له فى مؤلفه توضيح الاسباب الفكرية والاخلاقية لمأساة فاوست ، وسبب خيبة آماله فى المعرفة . يرى بوشكين ان مأساة فاوست تكمن فى ان الاخير كان شديد الاهتمام بذاته ، وفى ان بحثه عن المعرفة كان من اجل نفسه ولتحقيق رغباته ؛ وفى احقناره للناس ومصائرهم وحياتهم . استخدم بوشكين هنا الواقعية لبحث قضايا اجتماعية وفلسفية واخلاقية تواجه الانسان بشكل عام فى ذلك العصر . وكان فى هذا استمرار وتأكيد لمعركته مع الرومانسية ، غير المجدية .

راح يتعمق وينمو فى نفس بوشكين فى هذه الآونة إحساس بالمسئولية أمام الإنسانية والتاريخ . فهو صاحب موهبة فذة يعيها جيدا ، وهذا يلقي عليه مسئولية القيام بدور طليعى فى المجتمع . روج لفكرة الدور الطليعى للشاعر فى المجتمع - الشاعر الانجليزى "بايرون" . ومن المعروف ان بوشكين أحب " بايرون " شاعرا وتأثر الى أبعد حد بأفكاره ، مع الاحتفاظ بشخصيته المميزة . كان بوشكين يطلق على " بايرون " اسم " ملك الفكر " .

ويحضرنا هنا استطراد بسيط قد يكون له فائدة ما فى القاء الضوء على أحد زوايا فكر بوشكين ، فلقد اطلق لقب " ملك الفكر " على شخصيتين :

الأولى " بايرون " - كما ذكرنا - أما الشخصية الأخرى فهى بعيدة تماما عن الأدب - انه " نابليون بونابرت " .

فى عام ١٨٢٥ ، أثناد دراسة بوشكين لتاريخ الامبراطورية الروسية ، لفت نظره احداث الفترة العاصفة ، التى عاشتها الامبراطورية الروسية ، ما يُسمى بالعصر الغامض والمضطرب . انها فترة انتقال السلطة إلى " جودونوف " عن طريق اغتيال القيصر ، ثم اغتيال " جودونوف " نفسه ، واستيلاء الدعى " دمترى ايفانوفيتش " على العرش . تلى ذلك أحداث أخرى جسام ، تَتَقَلَّ اثناءها التاج الروسى من يد الى اخرى دون استقرار ، وهزت المؤامرات والحروب أرجاء الامبراطورية . نضجت فى ذهن بوشكين فكرة كتابة تراجيديا " بوريس جودونوف " لظهار معنى محدد : وهو ان الشخصية الفردية تكون قادرة على العطاء عندما ترتبط بالشعب وتعبر عن ارادته .

انتهى بوشكين من كتابة المأساة الشعرية " بوريس جودونوف " فى ٧ نوفمبر ، عشية احداث جسام ستقع لأصدقاءه الثوار ، وفى ١٤ ديسمبر عام ١٨٢٥ قام الضباط أبناء النبلاء والأشراف بحركة عُرِفَت " بثورة الديسمبريين " .

بعد ذلك أنهى بوشكين كتابة الفصل الخامس من قصة " يفجينى أونيجين " . وقد صور فيه الحياة الروسية البسيطة ، حياة الفلاحين وأحلامهم وحكاياتهم ، كما وصف منازلهم وعاداتهم . لم يعرض بوشكين

حياة الشعب من خلال أغاني الفلكلور ، والحواديت والحكايات الشعبية فحسب ، وإنما أهتم بكشف الروح الشعبية نفسها ، وطرح القضايا الجذرية السياسية والاجتماعية التى تهم الشعب ، مما قر به من الناس وجعله شاعرا محبوبا ، مفهومها من الأغلبية الساحقة . تميز أبطال القصة فى هذه المرحلة بالنضج ، لكن " أونيجين " مازال منعزلا عن العالم وعن حياة شعبه .

خلال هذين العامين فى ميخايلوفسكايا نظم بوشكين مايزيد عن سبعين قصيدة قصيرة وقصتين شعريتين : " الغجر " ، " الكونت نولين " ، و "تراجيديا " مشهد من فاوست " ، وأتم كتابة أربع فصول من " يفجينى أونيجين " .

فى ١٩ نوفمبر ١٨٢٥ توفى القيصر " الكسندر الاول " ورأى الضباط الثوار ان ينتهزوا فترة انتقال السلطة للقيام بحركتهم المسلحة . وفى ١٤ ديسمبر فى بطرسبورج خرجوا بالأفواج والكتائب الموالية لهم . لكن ثورتهم قمعت بعنف وشدة . لقد أراد القيصر الجديد " نيكولاى الأول " ان يثبت قدرته على الاحتفاظ بتاجه . شنق خمسة واعتقل ونفى الى سيبيريا المئات لقضاء عقوبة الأشغال الشاقة . كان بين المعتقلين والمنفيين أصدقاء مقربين لبوشكين ، مما جعل هذه الأحداث تهزه من اعماقه . وانتظر دوره فى العقاب ، فعلى الرغم من انه لم يكن مشتركا مع الثوار ، الا أنهم كانوا يحفظون أشعاره التى تتغنى بالحرية ويتناقلونها فيما بينهم . كان بمثابة شاعر الثورة وبالفعل استدعاه القيصر الى موسكو للقاء . وقمت المواجهة فى الثامن من ديسمبر ١٨٢٦ فى الكرملين ، واستمرت حوال ساعة . عُرف القليل مما دار اثناء لقاءهما ، لكن يُقال ان بوشكين أجاب القيصر على سؤاله : " لو كنت

يوم ١٤ ديسمبر فى بطرسبورج ، فماذ كنت فاعل ؟ أجاب " :- كنت حتما سأكون فى صفوف المنتفضين . " هذه الاجابة وحدها كانت كافية لتوقيع عقوبة الاشغال الشاقة على بوشكين لكن " نيكولاى الاول " أراد ان يكسر هذا الشاعر العنيد بدهاء ، فالنقى وفرض الرقابة أثبتنا عدم جدواهما معه . . قرر العفو عنه ، وإرجاعه من منفاه . فكر القيصر أن يكسب ريشة بوشكين ، المحبوب عند الناس ، الى صفه . وإن لم يستطع ، فهناك الحيل الماكرة لتحطيمه . كذلك عفاه من عرض مؤلفاته على موظفين الرقابة ، وحدد له رقبيا واحدا - هو ذاته - القيصر .

أسرف " نيكولاى الاول " فى الوعود والعهود التى قطعها على نفسه ، اثناء لقاءه مع بوشكين ، بأن ينهج نهج " بطرس الاول " الاصلاحى والتنويرى . لكن الايام أثبتت فيما بعد ان الوعود تظل وعودا وحسب ، فقد اشتهر " نيكولاى الاول " بالاستبداد وعدم الكفاءة . غادر بوشكين " ميخايلوفسكايا " الى العاصمة .

العودة إلى حياة الاضواء فى العاصمة :-

كتب بوشكين فى ديسمبر من هذا العام - وهو يعلم من سيكون رقيبيه - قصيدة أسماها " موشحات " طالب فيها القيصر ان يفى بعهوده ، ويتبع خطى "بطرس الأول" (١) ويقوم بالاصلاحات ، ويعفو عن الديسمبريين وأسره المنفية فى " سيبيريا " .

بيد السلطة

راح يزرع التنوير بجرأة ،

(١) من المعروف أن بطرس الأول "المشهور أيضاً بـ "بطرس الأكبر" سافر إلى بعثات إلى دول شمال أوروبا ليتعلم فن بناء وإدارة الأسطول . وعاد إلى بلاده وشارك بنفسه مع العمال فى بناء سفن اول اسطول روسى . كان محبوبا من الشعب منذ صغره لتواضعه وتفهمه لظروف بلاده وشعبه . وخلفه ابنه «الكسندر الاول» ثم حفيده «نيكولاى الاول» الموجهة اليه القصيدة - وكلاهما لم يحظ بمواهب «بطرس الاول» ولا بمكانته لدى الشعب .

لا يحتقر بلاده
وما يلزمها يعرفه .
عالم ، وبطل ،
بحار ، ونجار ،
كان على العرش حاكما خالدا .

لك ان تفخر بنسبك
كن شبيها بسلفك
كن مثله ، ذوهمة وحزم ،
ويذاكرتك ، مثله ، لاتذكر الشر .
(١٨٢٦)

وفى يناير عام ١٨٢٧ كتب قصيدة " الى سيبيريا " ، وأرسلها مع
احدى زوجات اصدقاءه المسافرة الى هناك لتلحق بزوجها .

فى سيبيريا ، فى أعماق مناجم الخام
احفظوا صبركم رفيع المقام .
لن يضيع هباء عملكم ، الذى لحقته نكبة ،
ولا الطموح العالى لأفكاركم السامية .

الحب والصدقة
سيصلان اليكم عبر الحراجز الكثيبة ،
كما فى مناجم الاشغال الشاقة
وصل اليكم صوتى الحر .

الأغلال الثقيلة المُرَهقة ستسقط عنكم
والزنازين ستنهار - والحرية
ستستقبلكم عند المدخل فرحة ،
وسيعيد اليكم رفاقكم الحسام .

استخدم بوشكين بدوره ذكاه ليتمكن من الاستمرار فى الكتابة
مطالباً بالاصلاحات ، منتقداً ما لا يعجبه من أوضاع . لقد تناول
شخصية " بطرس الأكبر " ، وجعله محورا لأكثر من عمل ، ليعطى
القُدوة " لنيكولاى الأول " ويذكره دائماً بعهوده . كتب قصيدة " بولتافا"
عن احداث حرب بولتافا عام ١٧٠٩ ، التى انتصرت فيها روسيا على
السويد بعد سنوات من الحروب ، وتظهر شخصية " بطرس الاول -
كمدافع شجاع ، وحاكم عظيم ، وزعيم وطنى ، لقد عمم بوشكين هذه
اللحظة التاريخية على كل فترة حكم " بطرس الاكبر " ، وأغفل الكثير
من آراءه السابقة عن الجوانب السلبية فى حكم " بطرس الاول " ليجعله
رمزا وقُدوة " لنيكولاى " .

لقد أصبح القيصر يخشى بوشكين ، هذا مايشعر به العالمون بالأمور
فى العاصمة . عبر عن ذلك الشاعر البولندى " أدام ميتسكييفيتش "
أثناء زيارته لمدينة بطرسبورج فى هذه الآونة ، بأن أطلق على القيصر
وبوشكين اسم : " حاكمى روسيا " .

عرض بوشكين تراجيديا " بوريس جودونوف " على الرقيب -
القيصر ، فمنع الأخير نشرها ، وبدأ يضيق الخناق حول بوشكين ،
وأصبحت حياته فى العاصمة حزينة مكتئبة ، فهو يحيا بين الاعداء
المعلنين والخفيين ، كثيرون حوله يقدمون النصح اليه ، ولكنهم فى

حقيقة الامر يفرضون القيود عليه . وأصبح المجتمع الراقى فى
العاصمتين ، موسكو وبطرسبورج ، حيث يعيش ويتنقل ، أصبح مجرد
" دوامة " خطيرة منهكة ، وشعر بوشكين بصعوبة فى الكتابة ، فراح
يناجى الوحى : -

وأنت أيها الوحى الفتى ،
دع خيالى بك ينفعل ،
أنعش قلبى من غفوته ،
أهبط كثيرا الى ركنتى ،
لاتدع روح الشاعر فى تفتت ،
تتصلب ، وتقسو ،
ثم فى النهاية تتحجر ،
فى سرور من الاضواء قد تجمد ،

فى تلك الدوامة ، حيث معكم ،
يا اصدقائى الأعزاء ، أسبح .

فى هذه الظروف النفسية الصعبة كتب بوشكين فصلا واحدا من
القصة الشعرية " يفجينى أونيجين " .

تعرض بوشكين فى عام ١٨٣٠ لحملة نقد شرسة من بعض النقاد
على صفحات الجرائد والمجلات الأدبية ، زادت من همومه . لكن كان
يجلب السكينة والخبور الى نفسه المرهقة وجود شعراء وكتاب من
الشباب الناشئين يؤمنون بموهبته ويفهمون اشعاره ويتحمسون لأفكاره ،

ولقد أصبحوا فيما بعد كتابا عظام ، يؤثرون بدورهم فيمن يليهم . نذكر من بينهم : " جوجول " ، " ليرمونتوف " ، " بيلينسكى " . وكان بوشكين يستمد السعادة كذلك من مراسلاته ولقاءاته مع اصدقاءه القدامى . كتب له ذات مرة صديقه " تشادايف " يقول : " انا واثق انه بإمكانك تحقيق فائدة عظيمة لروسيا المتعسة ، التي ضلت الطريق " .

فى مايو ١٨٣٠ خطب بوشكين فتاة رائعة الجمال ، فى السادسة عشر من عمرها ، تدعى " نتاليا نيكولايفنا جونشارافا " ، كان قد تعرف بها قبل عامين فى موسكو .

الخريف الاول فى قرية " بولدينو " :

مرحلة جديدة مميزة فى حياة بوشكين الفنية تبدأ مع خريف عام ١٨٣٠ . والخريف هو فصل بوشكين المفضل ، فهو يقول :- " فى كل خريف افتتح من جديد " . أمضى بوشكين هذا الفصل المحبب الى نفسه فى قرية " بولدينو " وخلال شهرين ونصف كتب مجموعة قصصية بعنوان " قصص بلكين " ، وأربع مسرحيات : "موتسارت وسالييرى " ، والمأساة - الملهاة عن سطوة المال " الفارس البخيل " ، "الضيف الحجرى" ، " وليمة فى زمن الطاعون " ، وأسمائها جميعا " التراجيديات الصغيرة " . كما أتم قصة " يفجينى أونيجين " ، كتب عددا من القصائد القصيرة تعد من روائع الفن الشعرى ، ومجموعة قصائد عاطفية اسمها " الوداع " ، و" التوسل " ، " على ضفاف الوطن البعيد . . . " .

لا أريد ، يا أصدقائى ، أن أموت ،
أريد ان أحيا لأعانى وأفكر ،
وأنا واثق أن المسرات حتما ستأت ،

وسط الأحزان ، والأعباء ، والقلق الوفير ،
 سأستمتع احيانا من جديد بالنغم الجميل ،
 وأسكب دمعاً على الخيال غزير ،
 وربما - فى غروب حياتى الحزين ،
 يبرق الحب من ابتسامة وداع .

سادت قصائد بوشكين فى هذه المرحلة نغمة يمتزج فيها الحزن على
 أعزائه ، والقلق النفسى ، والتعب من الرقابة ، مع أمل كبير وعميق فى
 السعادة .

تميزت هذه المرحلة بالنضج الفكرى والفنى عند بوشكين وانتهاجه
 الواقعية فى مؤلفاته ، أبطاله عاديون ، يعيشون بقوانين بيئتهم ، وهو
 يشرح ويحلل الشخصيات وفقاً لظروف حياتهم ، ثم يقودها الى الصراع
 مع هذه الظروف والتمرد عليها ، احيانا لتغييرها ولو بالعنف ، تميزت
 اعمال هذه الفترة ايضا بانها تدور حول البحث عن القيم الأخلاقية ، وعن
 السعادة ، وسبل وكيفية مواجهة الانسان لنفسه ولمجتمعه ، ربما لأن
 بوشكين نفسه كان يبحث عن مخرج وعن أسلوب يتعامل به مع المجتمع
 والقيصر والحرس ، حتى لا يذل نفسه ، ولا يظل متعقبا. يريد أن يعيش
 فى حرية دون تقديم تنازلات .

لقد واجهه مأزق وهو يكتب الفصول الاخيرة فى القصة الشعرية
 " يفجينى اونيجين " ، كانا الفصلان الثامن والعاشر مرتبطين بأحداث
 ثورة ديسمبر ١٨٢٥ ، وحتى لا يكونا سببا فى تعطيل نشر القصة -
 لأن القيصر حتما لن يوافق عليهما - اضطر بوشكين إلى حذفهما . فعل
 ذلك أيضاً لأنه لم يكن يعرف أية نهاية يكتب لهذه الأحداث السياسية

الواقعية ، فهي فى علم الغيب بعد ، ومصير البطل يصعب التكهّن به .
خرج بذلكه من هذا المأزق بان حول الأحداث من سياسية الى اجتماعية -
اخلاقية . جعل البطلة ترفض حب " أونيجين " - وهو ما كانت يوما
تتمناه - من أجل الحفاظ على أخلاقيات المجتمع . تحدث بعذوبه عن
السعادة " التى كانت شديدة القرب " ولم يكن يشعر بها ، وأصبحت
مستحيلة الآن ، حتى لاتضيع القيم . تقول " تتيانا " بطلّة القصة
لـ " أونيجين " :-

كانت السعادة ممكنة
كانت قريبة لنا . . لكن مصيرى
تحدد . قد أكون وقتها
تصرفت بدون حرص .

لقد تزوجت ، ويجب عليك
أن تتركنى ، أتوسل اليك .
أعرف أن فى قلبك
كبرياء ، والشرف أصيل فيك .
أحبك ، ولماذا الخداع ؟
لكنى لغيرك زُوجت ،
وسأكون وفية له ما حييت .

حياته الأسرية : -

عاد بوشكين الى حياة العاصمة . طلب الحصول على تصريح بالسفر
الى الخارج ، لكن طلبه رُفض .
ومنذ مايو ١٨٣١ أصبح هناك من يقاسمه الحياة فى بطرسبورج .

لقد تزوج من " نتاليا نيكولايفنا " ، وهذا الوضع الاسرى الجديد فرض عليه أعباء مادية ونفسية جديدة ، جعلت سعادته يشوبها القلق وتوتر من نوع جديد .

طلب السماح له باصدار مجلة ، علّما تكون متنفسا فكريا وماديا . وطلبه هذا أيضا رفض ، أراد الاطلاع على أرشيف الدولة لبحث فى التاريخ . فسُح له ، على أن يعمل فى إدارة الخارجية . وهكذا أصبح بوشكين موظفا ، وقيدت الوظيفة حرته الى حد ما . أثناء اطلاعه على الأرشيف جمع مادة تاريخية عن بطرس الأول وعن أحداث كثيرة هامة سيتطرق لها الحديث فى حينه .

فى نهاية عام ١٨٣٣ ألحق القيصر ببوشكين ضربة أخرى ، فقد منحه لقباً جديداً يجعله من شباب البلاط الامبراطورى ، مما أساء الى مشاعره لسببين : أولهما ، أنه ربط بوشكين بالبلاط اكثر ، وثانيهما ، أن هذا اللقب يُمنح لمن هم دون سن بوشكين بكثير من شباب العائلات الارستقراطية . لقد عمد القيصر الى تكبيل موهبة بوشكين بأسلوب غاية فى الدهاء ، كما أهان اسم بوشكين بدلا من أن يرفعه . لم يكن فى امكانه رفض اللقب ، ولا الاستقالة . وإنما لجأ الى طريق طالما انتقدها بنفسه على لسان أبطاله - لجأ الى الهروب الى مكان ناء ، هرب إلى القرية بعيدا عن القصر ، والبلاط ، والحرس ، ومجتمع العاصمة " الراقى " ، ولقد أصبح هذا هو الموضوع الجديد ، الذى غذى به مؤلفاته التالية - " الهروب الى القرية ، حيث الحرية أكثر " .

فى الدنيا لا توجد سعادة ، لكن هدوء وإرادة
منذ زمن وأنا أحلم بقدرى الباعث على الحسد

منذ زمن وأنا ، العبد المتعب ، أنوى الهرب
الى مقرّ ناء للعمل والنعيم النقى .

(١٨٣٤)

لم تجلب له حياته الزوجية السعادة وحسب ، بل أتت بالمتاعب
أيضا - كما ذكرنا - فالوحدة والهدوء اللانمان لفنه يزعجان زوجته
الجميلة الصغيرة . كان يضطر الى الذهاب معها الى الحفلات الرسمية
والحفلات الراقصة . وكانت " نتاليا " تحب حياة الاضواء . وهذا النمط
من الحياة يلزمه الكثير من المظاهر ، والأخيرة بدورها يلزمها الكثير من
النقود . كل ذلك كان فوق امكانيات بوشكين فى المرحلة الراهنة ، فغرق
فى الديون ، كان يلجأ الى القرية ليخلو الى نفسه ، حتى يكتب . كانت
زوجته تذهب أحيانا بمفردها الى الحفلات الراقصة ، وتتردد على القصر ،
بل وتراقص القيصر ، ان جمال ودلال زوجته أصبحا منبععا آخر
للمتاعب . وسط هذا الجو كان بوشكين يفتقد الهدوء النفسى . لقد
سلبوه سكينته وحرية . وفى احد خطباته ، التى أرسلها الى زوجته من
القرية ، كتب يشكو لها من شدة قلقه عليها ، ومن أنه يجد صعوبة فى
الكتابة ، ولا يفكر فى شئ سواها .

وسط هذه الدوامة كانت علاقته بالكُتّاب الشبان ، المقتنعين به ،
تسعه الى اقصى حد . كتب " جوجول " - الكاتب المبتدئ آنذاك -
مقالا بعنوان " بعض الكلمات عن بوشكين " اظهر فيه عبقرية الشاعر ،
ووصف الطابع المميز لمؤلفاته وافكاره ، وألقى الضوء على الروح الشعبية
التي يتمتع بها فى كتاباته .

أثناء اطلاق بوشكين على الأرشيف ، ليكتب عن " بطرس الاكبر " ،

لفتت انتباهه احداث انتفاضة الفلاحين فى القرن الثامن عشر (١٧٧٣ - ١٧٧٥) فى عصر " يكاثيرينا الثانية " بزعامة "إمليان بوجاتشوف " . وهى انتفاضة ترفض العبودية فى وقت يسبق أحداث الثورة الفرنسية ، فكتب " تاريخ بوجاتشوف " بدلا من ان يكتب " تاريخ بطرس " . ان قصة " تاريخ بوجاتشوف " يعتبرها النقاد ذروة الفكر والجمال الأدبى فى الطفرة التى حدثت فى أعمال بوشكين فى الثلاثينات . ولكنها لم تعرض بعد على الرقابة لتأخذ جواز المرور الى القراء . . .

الحريف الثانى فى قرية " بولدينو " :

وبأت خريف عام ١٨٣٣ بمرحلة جديدة وهامة فى حياة بوشكين ، ويقضيه فى قرية " بولدينو " ، وهو مايعرف بـ " الحريف الثانى فى بولدينو " . (اما الحريف الاول فقد كان فى عام ١٨٣٠) . مكث بوشكين فى قرية " بولدينو " هذه المرة شهر ونصف ، أثمر خلالها قصتين شعريتين : " الفارس النحاسى " ، " اندجيليو " ، وقصة " فتاة البستون " ، وعددا من القصائد العاطفية بالغة العذوبة والروعة . كما كتب قصيدة " الحريف " عن شخصية الشاعر ، وهو موضوع كثيرا ما طرقه الشعراء الرومانسيون فى اوروبا وروسيا ، وكذلك فعل بوشكين .

يأفل ضوء اليوم القصير ، والمدفأة بالحطب تمتلئ
النار تشتعل من جديد - تارة تنشر ضوءا متوهجا ،
وتارة اخرى تشتعل ببطء ويخفت اللهب - وأنا امامها اقرأ ،
والافكار الممتدة تحتوينى .

وأنسى العالم - وفى الصمت اللذيذ
 يخدرنى الخيال بلذة
 ويستيقظ الشعر فى اعماقى :
 وتزدحم نفسى بقلق وجدانى ،
 تهتز ، وترن ، وتنقب ، كأنى فى حلم .
 وفى انسيابية تفيض المشاعر -
 وهنا يحضر حشد من الضيوف غير المرئيين إلى ،
 معارف قدامى ، هم ثمار أحلامى .

والأفكار فى رأسى تعترم فى جراحة ،
 وتجرى لملاقاتها القوافى السلسلة ،
 وتستأذن أناملى فى الذهاب الى الريشة ، والريشة - الى الورق ،
 دقيقة - والشعر ينساب وينطلق .

مرة أخرى فى " دوامة الاضواء " :-

مع نهاية الحريف عاد بوشكين الى بطرسبورج ، وبدأ التوتر يحيط
 بحياته الشخصية والعملية على السواء . فمن الناحية الشخصية ، بدأ
 من جديد أرهاق الزيارات والحفلات ، وأعباء الحياة اليومية ، وتعقب
 الحرس له ، والمقالات النقدية ، التى تُنشر فى المجلات والصحف تزف
 بشرى نهايته الفنية . كما كان يضنيه أكثر وأكثر ما يسمعه من شائعات
 حول زوجته . أما من الناحية العملية ، فقد كان عليه السعى لإصدار ما
 أتم كتابته : قصتى " تاريخ بوجاتشوف " " والفارس النحاسى " . وحلت
 أصعب لحظة ، لحظة عرضهما على الرقيب ، والرقيب هو القيصر . ولأن
 بوشكين يتناول الأحداث من موقفه القريب من الناس ، ولا يمجد على

أى نحو فترة حكم القيصرية " يكاتيرينا الثانية " فى العمل الاول ،
ويصور " بطرس الأول " فى مواقف نقدية فى العمل الثانى ، فقد طلب
القيصر اجراء بعض التعديلات ، التى لم يكن بمقدور بوشكين الموافقة
عليها ، مما زاد من حدة التوتر بين " حاكمى روسيا " . ولم تظهر قصة
" تاريخ بوجاتشوف " كما هى ، بل استخدمها فيما بعد كنواة لقصة
اخرى بعنوان " ابنه الأمر " .

انتهى بوشكين من كتابة " تاريخ بوجاتشوف " فى يوم يوافق مناسبة
عزيزة عليه : فلقد صادف ١٩ اكتوبر ١٨٣٦ ، صادف احتفال مدرسة
" الليسيه " بمرور ٢٥ عاما على انشاءها . وأقامت المدرسة حفلا بهذه
المناسبة ودعت اليه خريجى الدفع الأولى . كتب بوشكين قصيدة ليلقيها
بهذه المناسبة ، ولكنه لم يتمها من شدة وطأة المعاناة والضغوط النفسية
التي ارهقتها :

ذات يوم : كان احتفالنا الفتى
يتألق ، يضج بالصخب ، وتزينه الورود ،
تختلط فيه الأغانى برنين الكئوس ،
وتلاصقنا فى جلستنا لكثرتنا . . .

الآن يختلف الحال : احتفالنا الصاحب
بمضي السنين ، مثلنا ، قد هدا ،
سكن ، أفاق ، وخمد . . . !

وأخيرا تحقق له فى عام ١٨٣٦ الحصول على تصريح اصدار مجلة
ادبية اسمها " سوفرمينك " أى " المعاصر " انشغل بوشكين فى تجهيز
مادة الأعداد الأولى للمجلة ، وقرر نشر " ابنه الأمر " فى العدد الرابع .

لم تُحسِّن المجلة - كما كان يتوقع - من حالته المادية المتدهورة ، على العكس ، لقد باع فى هذا العام ماورثه عن والده ، وبعض متعلقاته النفيسة . وتراكت الديون عليه . وتلاحقت اللكمات ، التى يكيلها له " مجتمع الأضواء " : الديون ، مقالات هجومية تتهم موهبته بالنضوب ، رقابة وحراسة ، وجاءت الضربة القاضية . . . لقد دأب ابن سفير هولندا فى روسيا ويدعى " دانتييس " ، دأب على مغازلة " ناتاليا " زوجة بوشكين وملاحقتها فى كل مكان تذهب اليه . وفى ٤ نوفمبر تلقى بوشكين ومجموعة من أصدقاءه خطابات بدون توقيع تسئ لسمعة زوجته . وكانت مؤامرة واضحة من " مجتمع الأضواء " تهدف الى الانتقام من الشاعر وتحطيمه نهائيا .

وفقا لقواعد المجتمع آنذاك لم يكن امام بوشكين خيار ، لاهد أن يدعو " دانتييس " إلى المباراة دفاعا عن شرفه . وربما وجد بوشكين أن المباراة هى المخرج الوحيد من العقدة التى أحكم نسجها حوله القيصر ، فإما الموت ، أو النفى خارج بطرسبورج .

تحدد تاريخ المباراة يوم ٢٧ يناير ١٨٣٧ . وفى ٢٢ ديسمبر صدر العدد الرابع من " المعاصر " وبه " ابنه الأمر " .

. . . حانت لحظة المباراة . لقد أصاب " دانتييس " بوشكين فى مقتل. عاش بوشكين بعدها يومين وهو يصارع الموت والألم برجولة وتجدد كان اصدقاءه يتناوبون الجلوس الى جواره . وفى صباح ٢٩ يناير طلب من زوجته ان يأكل ، وأغمض عينيه لحظة ، ثم فتحها وقال بصوت هامس : " انتهت حياتى . . . أشعر بضيق فى التنفس . . . أشعر انى أخننق . . . " وفاضت روحه الى بارئها .

منذ الصباح وحتى المساء توافدت جماهير غفيرة لتوديع جثمان الشاعر العظيم عدا أبناء " دوامة الأضواء " لم يظهروا عند وفاته أو أثناء رقاذه .

باشعاره شيد لنفسه قمثالا شامخا . . : -
فى الثالث من فبراير ١٨٣٧ نُقل جثمانه إلى قرية " ميخايلوفسكايا " . رافقه صديقه الكاتب " تورجينيف " فى مشواره الأخير الى دير " سفيتاجورسك " حيث دفن الجثمان .
ظن القيصر انه قد تخلص من الشاعر قتما ، فهو قد مات ، وجثمانه دُفن فى قرية نائية . لكن هل لمن له اشعار بوشكين أن يموت وينتهى ؟ ! .. لقد كتب بوشكين فى آخر أيامه قصيدة كانت بمثابة الوصية ، قيّم فيها نفسه على نهج شعراء أوروبا فى هذا الوقت . كان يعرف مدى شعبيته وحب الناس له :

سأظل لفترة طويلة محبوبا من الشعب
لان المشاعر الطيبة بشعرى قد أيقظت
والحرية فى زمانى الصعب قد مجدت
والى الرأفة بالشهداء قد دعيت .

ان هامة قمثاله الذى شيده بالشعر - على حد تعبيره - تعلقو هامة قمثال أشهر قياصرة روسيا ، والحشائش الخضراء لن تنمو أبدا الى جواره ، من كثرة خطى الأقدام ، التى ستحضر لزيارته .. مأروع هذه الصورة .. لقد قال عنه الأدباء والنقاد المخلصون أجمل الكلمات ، لكن لم تصل بلاغة وصف أحدهم هذا الحد .

لماذا " الفجر " و " ليالى مصرية " ؟

لقد اخترنا أن يجمع كتاب واحد ترجمه القصة الشعرية " الفجر " والقصة التى لم تكتمل " ليالى مصرية " لوجود أكثر من شئ يجمعهما . أولا : فيهما تظهر بوضوح احدى أهم " التيمات " التى سيطرت على فكر بوشكين واستحوذت على ملك إلهامه وهى " البحث عن الحرية " بشتى أنواعها . فأبطاله يتغنون بالحرية الفكرية والشخصية والاجتماعية السياسية . كما تجمعهما صفة أخرى مميزة لانتاج بوشكين الأدبى . . ألا وهى العالمية . وثالث ما يجمع هذين العاملين أن بوشكين بدأ كتابتهما فى نفس الفترة الزمنية تقريبا . بمعنى أنه بدأهما وهو تحت تأثير مزاج نفسى واحد ناتج من أحداث بذاتها . ففى عام ١٨٢٤ بينما ينفعل بوشكين بالأحداث الثورية التى تجرى فى اليونان وأسبانيا ، وبينما يتابع نمو الحركة الثورية بين الضباط النبلاء فى جيش روسيا (حركة الديسمبريين) بدأ يكتب " الفجر " وقصيدة " كليوباترا " ، التى أعاد صياغتها فيما بعد ثم استخدمها بعد فترة فى قصة " ليالى مصرية " .

« الغجر »

قصة شعرية

الفجر

مقدمة

تحتل القصة الشعرية " الفجر " مكانة بارزة بين مؤلفات بوشكين . وقد يرجع ذلك الى سببين : الأول ، أنها تدور حول الموضوع الرئيسى ، الذى طالما ألهم قريحة الفنان الشاعر طوال حياته ، ألا وهو البحث عن الحرية . والثانى ، أن القصيدة تعكس جانبا آخر فى موهبة الشاعر ، وهو عدم التقييد بالمحلية ، أى العالمية .

بدأ بوشكين كتابة القصة الشعرية " الفجر " فى يناير ١٨٢٤ فى مدينة "أوديسا " . كتب منها ١٤٥ بيتا فقط . ثم عاد وأتمها فى اكتوبر من نفس العام فى مدينة " ميخايلوفسكايا " . نظم ال ٣٩٤ بيتا الأخر فى فترة لا تتجاوز عشرة أيام . (١)

وبهذا يكون بوشكين قد نظم القصيدة أثناء فترتى منفاه : الجنوى ، والشمالى ، بينما يُحَضَّرُ أصدقاءه من الضباط الديسمبريين لحركتهم الثورية ، التى قاموا بها فى ١٤ ديسمبر ١٨٢٥ . لقد نالت قصيدة " الفجر " اعجابهم ، لأنها تتغنى بالحرية ، وتصف النظام الاجتماعى - السياسى آنذاك " بأغنية رتيبة يرددها العبيد " . وبعد حركة الضباط فى ديسمبر ١٨٢٥ ، وما تلاها من أحداث ،

(١) بالاضافة الى هذا ، وجد الباحثون فى المسودات مشهدا لم تتضمنه القصيدة ، على الرغم من الجهد المبذول فيه . المشهد يصور «أليكو» يناجى طفله فى المهد ، ولم يتوصلوا الى السبب الذى جعل بوشكين لا يضمنه القصيدة .

أرجأ بوشكين نشر القصيدة كاملة . ولم تظهر الا فى عام ١٨٢٧ بدون توقيع ، مع اضافة ملحوظة : " كتب فى عام ١٨٢٤ " .

ومن الطريف أن بعض أحداث وشخصيات القصيدة تحاكى أحداثا وشخصيات حقيقية صادفت الشاعر نفسه . فمن المعروف أن بوشكين تغيب بضعة أشهر (قبل عام ١٨٢٦) . وعُرف بعد ذلك بوقت أنه كان ينتقل فى أراضى وسهول " مولدافيا " مع قافلة من الغجر . وقد اشار بنفسه فى الخاتمة الى ذلك . لقد أعجب بوشكين بالحرية التى يتمتع بها الغجر فى اسلوب حياتهم . فلهم كل الحرية فى التنقل بين السهوب والانطلاق والتحرر من " عبودية المدن الخائقة " . وما شخصية الشاعر المنفى الى الجنوب إلا الشاعر الرومانى القديم " أوفيدى " ، الذى كان بوشكين معجبا به ، وهو يشبه مصيره الشخصى بمصير " أوفيدى " . كما أن الأغنية ، التى تغنيها " زمفيرا " ، أغنية حقيقية ، جماعية ، راقصة يغنيها الغجر باللغة المولدافية . وقبل نشر القصيدة طلب بوشكين كتابة النوتة الموسيقية لها . وبالفعل تم له ما أراد ، ونُشرت الأغنية بمصاحبة النوتة الموسيقية .

ان لمحات وأفكار كثيرة لبطل القصيدة ماهى الا حقيقة أفكار بوشكين ، " فأليكو " الهارب من حياة المدن ، بحثا عن الحرية يشبه شخصية " أسير القوقاز " وكلاهما يشبهان الى حد ما بوشكين نفسه . فنراه يعرض رأيه فى " مجتمع الاضواء " (١) بصراحة على لسان " أليكو " حيث " ينجلون من الحب ، ويطاردون الفكر ، يتاجرون بحريتهم ويحنون رؤسهم لعلية القوم ، يتوسلونهم نقودا واغلالا " .

(١) انظر التقديم .

" ويرُجع النقاد نجاح القصيدة لشخصية " أليكو " وما أتى على لسانه من نقد لمجتمع المدينة ، " مجتمع الأضواء " وعلى الرغم من أن بوشكين نهج فى رسم هذه الشخصية نهج الشاعر الأنجليزى الرومانسى " بايرون "، إلا أنه اختلف عن شاعره المفضل بأنه أوضح مأساوية الفلسفة الرومانسية ، وعدم جدوى الحرية الفردية ، وهزيمة الأنانية . " فإليكو " حين يهرب من مجتمعه يحمل معه أينما ذهب كل ما يكرهه فيه . لقد أكد بوشكين من موقع الفكر الواقعى أن " الهروب " الرومانسى لا يغير من الواقع شيئا . ولقد احتسب النقاد لبوشكين هذا الموقف لأنه حمى الأدب الروسى من تأثيرات بعض الثقافات الأخرى آنذاك .

* * *

الشخصيات حسب ترتيب الظهور فى القصيدة

- ١- شيخ غجرى .
- ٢- زمفيرا : ابنته .
- ٣- أليكو : شاب حضرى ، هارب من حكم القانون . يقع فى غرام زمفيرا ، ويتبعها الى أى مكان .
- ٤- شيخ عجوز من الحضر ، كان قد نُفى الى الجنوب .
- ٥- ماريولا : من نساء الفجر ، والدّة زمفيرا وزوجة الشيخ الغجرى .
- ٦- شاب غجرى تحبه زمفيرا .

فى جمع صاخب
يرتحل الغجر فى بيسارابيا (*) .
اليوم عند النهر
يبيتون فى خيمهم البالية .
لمخيمهم مرح الحرية والانطلاق
وهداة الحلم تحت قبة السماء ؛
بين عجالات عرباتهم
حيث القوا بسطهم
شعلة مُتَقَدَّة ، حولها عائلة
تجمعت تطهو العشاء . فى العراء
خيولهم ترعى ؛ وخلف الخيمة
يرقد حراً دب أليف .
وسط السهوب
كل ماحولهم عارم بالحياة :
هموم الاسر الوديعة ؛
التى تأهبت للرحيل مع الصباح
الى مكان آخر قريب ؛
اغانى الزوجات ، صياح الاطفال
ورنين سندان المسير .
وهاهو صمت النعاس
يهبط على قافلة الغجر المرتحلين .

(*) بيسارابيا : هى المنطقة المعروفة الان بجمهورية مولدافيا السوفيتية
(المترجم)

ولا يخترق سكون السهوب
سوى نباح الكلاب ، او صهيل الخيل .
انطفأت النيران ،
وعم السكون المكان ، يتألق القمر
وحده من علياء السماء
يضىء قافلة الغجر الهادئة .
فى احدى الخيام شيخ لاينام ،
يجلس امام جمرات
يتدفأ بآخر لهبها ،
ويحرق فى الخلاء البعيد ،
المغطى بغلاله من بخار الليل .
ابنته الصبية ،
التي اعتادت الانطلاق والحرية
ذهبت تتنزه فى الاراضى الخالية .
ستأتى ؛ ولكن هاقد اسدل الليل ستاره ،
وسرعان ماسيغادر القمر
سحب السماء البعيدة ، -
وزمفيراً لم تعد بعد ؛
وعند العجوز يبرد العشاء المتواضع .

لكن هاهى زمفيرا . وفى اثرها
عبر السهب يسرع شاب ؛
لايعرفه الغجرى العجوز .

تقول الصبية :- " ياوالدى ، -
احضرت معى ضيفا ؛
وجدته خلف التل فى السهب
ودعوته ليقضى الليلة عندنا .
يريد ان يصبح غجريا مثلنا ؛
يتعقبه حكم القانون ؛
لكن سأكون صديقه .
اسمه أليكو - وهو
مستعد ان يتبعنى حيثما أكون " .
الشيخ
- سعيد بحضورك . ابق حتى الصباح
تحت سقف خيمتنا
او لتبق اذا شئت معنا لوقت أطول .
انا يابنى مستعد
ان اقتسم معك الخبز والمأوى .
كن واحداً منا - واعتد حياتنا ،
الحرية والتجوال الفقير -
وغداً مع بزوغ الفجر
سنرحل معا فى عربة واحدة ؛
ولتحترف صنعه يابنى :
كأن تطرق الحديد ، او تنشد الاغانى
مصطحبا الدب تطوف القرى .

أليكو

- سأبقى معكم .

زمفيرا

- سيكون لى :

من ذا الذى سيبعده عني ؟
لكن تأخر الوقت . . القمر الفتى
قد غاب عن السماء ؛ وكسا الظلام الحقول ،
ورغما عني يغلبني النعاس . . .

نور الصباح يغمر المكان . الشيخ يطوف بهدوء
حول الخيمة الساكنة .
- " انهضى ، يازمفيرا : الشمس تشرق بنورها ،
استيقظ يا ضيفي ! لقد حان الوقت لتستيقظا !
غادرا ، ياصغيراى ؛ فراش النعيم ! " . .
وتدفق القوم فى صخب ،
حلوا الخيام ، والعربات
اعدوها للمسير .
وتحرك كل شئ فى آن واحد - وها هو
الحشد يسير فى السهول الخالية .
فوق ظهور الحمير عُلِّقَت السلال
بها الاطفال يلعبون ؛

الازواج والأخوة ، الزوجات ، الفتيات ،
الشيخ والفتيان يتبعون ؛
يتعالى الصباح ، والضجيج ، وأغانى الغجر ،
زمجرة الدب ، وقعقة ملولة
تصدر عن اغلاله ،
اسمال مبرقشة زاهية الألوان
اطفال وشيوخ أشباه عراة ؛
نباح وعواء الكلاب ،
احاديث المزمار ، صرير العربات
كل شئ فقير ، بدائى وهمجى ،
لكن كم هو عارم بالحركة والحياة ،
كم هو غريب عن ترف حياتنا الميت ،
كم هو غريب عن حياتنا الالهية ،
الشبيهة بأغنية رتيبة يرددها العبيد !

يتطلع الفتى بضجر
الى السهل المقفر
وسبب حزنه الخفى
ما تجرأ على تفسيره لنفسه .
سوداء العينين زمفيرا معه ،
وهو الآن أحد الاحرار فى العالم ،
والشمس فوقه مرحة
تتألق بجمال الظهيرة ؛

لماذا قلب الفتى مضطرب ؟
أى هم هذا الذى يضنيه ؟

عصفور الجنة لا يعرف
الهموم أو الاعمال ،
ولا يهتم بأن ينسج
عش يدوم مدى الأيام ؛
فى الليل الطويل فوق الغصن ينام ،
وعند شروق الشمس الارجوانية
يسمع العصفور صوت ربه
ينهض يرقص ويغنى .
بعد الربيع زينة الطبيعة ،
يحل الصيف الحار ،
وبالضباب والغيم والامطار
يأتى الخريف المتأخر :
فتضجر الناس وتبتأس ؛
ويرحل العصفور الى بلدان بعيدة ،
الى منطقة دافئة ، وراء اليَمّ الازرق
الى ان يعود الربيع .

مثله كالعصفور خالى البال
هذا الطريد المهاجر ،
ما عرف عشاً به الأمان
ولا لشيء تَعَوَّد .
بإمكانه الذهاب الى اى مكان ،
وله سقف للمبيت حيثما كان ؛
يستيقظ فى الصباح ،
ويُسَلِّم يومه لمشينة الإله ،
ولم يتمكن صخب الحياة
من أن يكدر كسل قلبه .
احيانا كانت بالمجد الخلاب
تغريه نجمة نائية ؛
وكانت الرفاهية والمسرات
تظهر فى حياته مباغتة ؛
وفوق رأسه الوحيد
كثيراً ما قصف الرعد قصفا ؛
لكنه بلا مبالاة كان ينعس
سواء كان الطقس عاصفاً أو صحواً .
وهو يحيا ولا يعترف بسلطان
القدر الغادر الاعمى ؛
ولكن ، رياه ! كم كانت تلهو الرغبات
بنفسه المنقادة الخائعة ؛
ويا له من قلق كانت به

فى طيات قلبه المعذب عارمة !
هل خمدت رغباته منذ زمن بعيد ؟ وهل لأجل طويل ؟
مهلاً ، بل ستفيق من جديد !

زمفيرا
- قل لى ، يا صديقى : أأست آسفا
على ما تركته الى الأبد ؟

أليكو
- وما الذى تركته ؟

زمفيرا
- انت تدرك :
أهل وطنك ، المدن .

أليكو
- علام الأسف ؟ أه لو تعرفين ،
لو تتصورين
عبودية المدن الخائقة !
الناس فيها محشودة خلف الاسوار
لاتتنسم برودة هواء الصباح ،
ولاتستنشق شذا الربيع فى المروج ؛

انهم يخجلون من الحب ، ويطاردون الفكر ،
يتاجرون بحريتهم ،
يحنون رؤسهم لعليه القوم .
يتوسلونهم نقودا واغلالا .
ما الذى تركت ؟ قلق الخيانة ،
حكم الباطل ،
الاضطهاد الجنونى من الناس ،
أم العار الجليل ؟

زمفيرا
- لكن هناك المهانى الضخمة ،
والبساط متعددة الألوان ،
هناك اللهو ، والولائم الصاخبة ،
وما أبهى ملابس الصبايا هناك !

أليكو
- وما قيمة صخب المرح واللهو فى المدينة ؟
حيث لا يوجد الحب ، لا يوجد المرح .
اما عن الصبايا . . فكم تفضليهن ،
بلا ثياب فاخرة ،
بلا لآلىء ، ولا عقود !
لا تتغيرى ، يا صديقتى الحانية !
اما أنا . . فلى رغبة واحدة

ان اقاسمك الحب ، واوقات الفراغ
ومنفاى الاختيارى !

الشيخ

- تحبنا ، بالرغم من نشأتك
وسط القوم الاثرياء .
الا ان الحرية ليست دائما مُحبة
لمن اعتاد الرفاهية والنعيم .
عندنا ، يابنى ، حكاية نتوارثها :
ذات يوم ، نفى القيصر الينا
احد اهالى الجنوب .
(لقد نسيت اسمه الصعب ،
وكننت سابقا أعرفه .)
بحساب السنين كان شيخا ،
لكنه كان شابا بروحه الودود .
كانت عنده موهبة رائعة للغناء ،
وصوته كان كخيرير الماء .
احببناه جميعا ،
كان يعيش على ضفاف الدانوب ،
لا يؤذى احداً ،
يستهوى الناس بحكاياته ،
لم يكن يدرك شيئا ،
كان كالاطفال ، ضعيفا وجلا ؛

كان الغرباء يصطادون من اجله
الوحوش والاسماك فى الشباك ؛
وعندما يتجمد النهر السريع
وتقصف اعاصير الشتاء ،
بالجلود ذات الوير الوفير
يدثرون العجوز الطاهر ؛
لكن مشاغل الحياة الفقيرة
لم يستطع ان يعتادها أبداً ؛
كان يطوف ناحلا ، شاحبا ،
ويقول : ان الله غاضب عليه
لذا يعاقبه على جريمته . . .
كان ينتظر : هل ستأتى ساعة الخلاص .
وظل الحنين الى الوطن يضنى البائس ،
وهو يتسكع على ضفاف الدانوب ،
يذرف الدمع المرير ،
كلما ذكر بلده البعيد .
وساعة احتضاره أوصى
بأن تُنقل الى الجنوب
عظامه ، التى طال بها الحنين والضنى ،
وليس للموت أن يريحها
فهى ضيوف غريبة بيننا !

أليكو

- هكذا اذاً مصير أبنائك ،
ياروما ، أيتها الامبراطورية العظيمة ! . .
ياشاعر الحب ، ياشاعرا الآلهة ، (*)
أخبرنى - ما هو المجد ؟
اهو صدى القبور ، أم صوت استحسان ،
ام حديث تتناقله الأجناس ؟
ام هو قصة تحت سقف خيمة داخنة
يرونها بدائي من الغجر ؟

انقضى عامان . والوضع كما كان
يطوف الغجر جمعا وديعا ؛
كسالف عهدهم يجدون فى كل مكان
حسن الضيافة والأمان .
أحتقر أليكو أغلال المدنية ،
وأصبح حراً مثل الغجر ،
بدون مشاغل أو أسف
يقضى أيامه يرتحل .
لم يزل كما كان ؛ والعائلة على حالها ؛
لقد ألف حياة الغجر ،
ولا يكاد يذكر من السنين ماسلف .

(*) يقصد الشاعر الرومانى اوفيدى نازون . (المترجم)

يحب ظلال خيامهم ،
 وبهجة الكسل الأزلى
 ولغتهم الفقيرة ذات النغم .
 والدب ، الشارد عن وجار عشيرته ،
 ضيف يكسوه الوبر فى خيمة أليكو .
 فى القرى ، على امتداد السهول ،
 بالقرب من منزل ريفى مولدا فى (*)
 امام الجمهور الحذر
 يرقص الدب متثاقلا ويجأر ،
 ويقرض سلسلته المضجرة ؛
 يتكىء الشيخ على عكازه الذى يصحبه فى الطريق ،
 ويدق فى كسل على الدف ،
 أليكو يقود الدب وهو يغنى ،
 زمفيرا تدور على اهل القرية
 تجمع عطاياهم الاختيارية
 وعند حلول الليل ؛ ثلاثتهم
 يطهون قمحاً جريشاً ؛
 ينعس الشيخ - ويهدأ كل شئ . . .
 الخيمة فى سكون وظلام .

(*) نسبة الى مولدافيا (المترجم) .

يُدفئ الشيخ بشمس الربيع
دماءه التي بردت ؛
وتغنى ابتته للحب عند الأرجوحة .
يصغى إليها أليكو ووجهه يشحب .

زمفيرا
- " زوجي العجوز ، زوجي الرهيب
حتى لو تذبحنى ، حتى لو تحرقنى ؛
صامدة سأظل ؛ لا يرعبنى
سكينك ولا نيران اللهب .
أكرهك ،
احتقرك ؛
أحب غيرك ،
وأموت فى هواه " .

أليكو
- أسكتنى . لقد مللت غناءك ،
لا أحب الاغانى الهمجية .

زمفيرا
- لا تحبها ؟ وما شأنى بذلك ؛
انما أغنيها لنفسى .

حتى لو تذبحنى ، حتى لو تحرقنى ؛
لن أخبرك بشئ عنه ؛

يازوجى العجوز ، يازوجى المخيف ،
انت لن تعرفه .
يفوق الربيع فى نضارته ،
يفوق يوم الصيف فى حرارته ،
ما أصباه ، وما أجرأه !
وجبه لى ما أغريه !

كم داعبته
فى هدأة الليل !
وكم ضحكنا وقتها
من شيبتك ! "

أليكو
- اسكتى ، يا زمفيرا ! أنا راض بحالى . .

زمفيرا
- اذاً ، فهمت أغنيتى ؟

اليكو
- زمفيرا !

زمفيرا
- لك ان تغضب ماشئت ،

إنما أقصدك بغناى .
(تنصرف وهى تغنى : يازوجى العجوز ، . . الخ)
الشيخ
- نعم . اذكر هذه الاغنية
نُظِمَت فى ايامنا ،
ومنذ زمان من أجل التسلية
يتغنى بها الناس عندنا .
كانت حبيبتي ماريولا احيانا تتغنى بها ،
وهى تتدفأ بالنار ، وتهدهد طفلة لنا ،
كان ذلك فى لىالى الشتاء الباردة
ونحن فى الطريق نرحل ، فى البرارى على ضفاف كاجول . (*)
تتباعد السنون فى مخيلتى
وساعة بعد الأخرى تتوارى وتغرب ؛
لكن هذه الأغنية انغrust
فى أعماق أعماق الذاكرة .

هادئ كل شئ أثناء الليل . يزين القمر
سماء الجنوب اللازورية ،
ايقظت زمفيرا الشيخ :
- " آواه ، ياوالدى ! ان أليكو مخيف
أصغى الى انه أثناء حلم ثقيل

(*) احد فروع نهر الدانوب . على ضفافه عام ١٧٧٠ أحرز الجنود الروس نصراً
هائلاً على الأتراك . (المترجم)

يثن وينتحب .

الشيخ

- لا تقريه . والزمى الصمت .

سمعت حكاية روسية تقول :

الآن فى منتصف الليل

يختنق نفس النائم بسبب

الروح التى فى المنزل ؛ وقبيل الفجر

ستنصرف . اجلسى معى

زمفيرا

- والدى ! انه يهمس باسمى : زمفيرا !

الشيخ

- انه يبحث عنك فى الحلم :

فأنت عنده أعلى من الكون .

زمفيرا

- أنفر من حبه ،

لقد مللته ! قلبى يرجو الحرية -

لأنى . . ولكن أنصت ! أسمع ؟

ينطق اسما آخر . .

الشيخ

- اسم من !

زمفيرا

- سامع ياوالدى ؟ انات مبحوحة
صيرير أسنانه عنيف ! . . كم هو مخيف ! . .
حتما سأوقظه . .

الشيخ

- لاداعى .
لاتطاردى الروح الليلية -
ستنصرف من نفسها . .

زمفيرا

- لقد تقلب على فرشته .
يهمم بالنهوض ، ويدعونى . . لقد استيقظ -
سأذهب اليه - وداعا ياوالدى ، ولتنم .

أليكو

أين كنت ؟

زمفيرا

- كنت جالسة مع والدى .
ثمّة روح كانت تضنيك ؛
اثناء نومك ، كانت تعاني نفسك
العذاب ؛ لقد أفزعتنى ؛
فى منامك ، تُصر بأسنانك

وتدعونى باسمى .

اليكو

- كنت أحلم بك .

رأيت ، كأن بيننا . .

رأيت أحلاما مفزعة !

زمفيرا

- لاتصدق الاحلام المضللة .

أليكو

- آه ، انا لا اصدق شيئا :

لا الأحلام ، ولا الوعود المعسولة ،

ولا حتى قلبك .

الشيخ

- علام ، أيها الفتى المتهور ،

تتنهد دائما ؟

الناس هنا أحرار ، والسماء صافية ،

والزوجات يشتهرن بالجمال .

لاتبك : سيقضى عليك الحزن .

أليكو

- لم تعد تحبني ، ياوالدى .

الشيخ

- أهدأ ، يا صديقى : فهى طفلة .
تكدر نفسك بدون داع :
حبك لها حزين صعب ،
إما قلب المرأة - فلاه .
أنظر : بعيدا تحت قبة السماء
يتنزه القمر الطليق ،
يمر على الطبيعة جمعا
يسكب بالتساو نوره الوضاء .
يعرج على احدى السحابات
فيضيئها ببهاء شديد -
ثم - ينتقل الى أخرى ،
وفى ضيافتها أيضا لايمكث الكثير .
من ذا الذى يحدد له مكانا فى السماء ،
قائلا : توقف هناك !
من ذا الذى يقول لقلب الصبية
أحب واحداً ، ولا تتغير فى هواك ؟
فلتهداً ، يا بنى .

أليكو

- كم كانت تحبنى !
يا لكيف كانت فى حنان ولطف تميل على ،
وتقضى هكذا ساعات الليل

فى هداة عزلتنا !
إنها تمتلئ بمرح طفولى ،
وكثيرا ماكانت بشرثرة ظريفة
أو بقبلة لطيفة
تبدد شرودى
فى ظرف دقيقة . . .
ثم ماذا بعد ؟ زمفيرا خائنة !
فترت مشاعر زمفيرتى نحوى . . .

الشيخ
- أصغ الى : سأحكى لك حكاية
وقعت أحداثها لى أنا تلك الرواية .
منذ عهد بعيد جدا كان الدون
لم يهدده بعد قوم الروس -
(كما ترى ، يا أليكو ، انى استعيد
أحزانا قديمة) .
كنا وقتها نخاف السلطان ؛
وكان باشا يحكم بودجاك (*)
من الأبراج العالية فى اكرمان - (**)
كنت شابا ، ونفسى
فى ذاك الوقت كانت تفور وتغلى من السعادة ،

(*) الجزء الجنوى من بيسارابيا (مولدافيا حاليا) . (المترجم)

(**) مدينة فى مولدافيا . (المترجم)

ولا خُصِّلَكة واحدة فى شعرى المجدد
كانت قد أشيبت بعد ، -
بين الصبايا الملاح
كانت صبية . . لاوقات طويلة
كنت أتأملها ، كالشمس ،
وأخيرا صارت لى . . .

وآه ، شبابى مسرعا
ولى ، كبرق النيزك الدانى !
وانت ، يازمان الحب ، انقضيت
اسرع منه : فقط لعام
حب ماريو لا لى دام .

حدث ذات مرة بالقرب من نهر كاجول (*)
ان التقينا مع قافلة من الغجر أغراب ؛
نصبوا خيامهم
قرب خيامنا عند الجبل ،
وأمضينا ليلتين معا .
وفى الثالثة رحلوا ، -

(*) احد فروع نهر الدانوب . (المترجم) .

وتركت ماريولا طفلتنا ،
ورحلت خلفهم .
كنت نائما فى هدوء وعندما بزغ الفجر ،
استيقظت ، فلم أجد رفيقتى !
رحت ابحث عنها ، أناديها - ضاع حتى أثرها .
أخذت تبكى زمفيرا حزينة ،
وكذلك فعلت . ومنذ هذا الوقت
سئمت كل من فى العالم من فتيات ،
وبينهن ناظرى
ما أنتقى أبدا رفيقة جديدة ،
وساعات فراغ الوحدة
لم أعد أقتسمها مع أحد .

أليكو

- وكيف لم تسرع
لتوك فى أثر الجاحدة ،
وفى قلب كل من سلبك إياها ، وفى قلبها الغادرة
لم تغمد خنجرك ؟

الشيخ

- وما الداعى ؟ إن الشباب فى حرите يفوق الطير ؛
من ذا الذى بإمكانه كبح جماح الحب ؟
السعادة تتعاقب على الجميع ؛
وما كان ، لن يصبح من جديد .

أليكو

- لست من هذا النوع - لا ، هكذا بهدوء
لا أتخلى عن حقوقى !
أو على الأقل فلا أستمتع بالانتقام .
لا ! لو أنى عند البحر على حافة ربوة
وجدت عدوى نائما ،
اقسم لك ، حتى قدمى
ماكانت ساعتها لترحم هذا الآثم ؛
وفى خضم البحر ، دون أن يشحب لونى
لألقيت به الأعزل ؛
ولهول يقظته المفاجئ
كنت أوجه عتابى بضحكات شرسة ،
ولظل لفترة طويلة دوى سقطته
مضحكاً وممتعاً لى .

غجرى شاب

- واحدة أخرى . . . قبلة أخرى . . .

زمفيرا

- حان وقت عودتنا : فزوجى غيور وشرس .

الغجرى

- قبلة واحدة . . لكن أطول ! . . . للوداع .

زمفيرا

- إذاً وداعاً الى أن يحضر .

الغجرى

- قولى لى - متى نلتقى مرة أخرى ؟

زمفيرا

- اليوم ، ما ان يغيب القمر ،

هناك ، خلف التل عند القبر . . .

الغجرى

- تخذعنى ! لن تحضر !

زمفيرا

- ها هو قادم ! أجر ! . . . بل سأحضر ، يا حبيبى .

اليكو نائم . فى ذهنه

يبرق حلم مبهم ؛

يفيق صارخا والظلام يكتنفه ،

يبسط يده وتعتريه الغيرة ؛

ولكن اليد المتهيبة

تتشبث بالأغطية الباردة -
رفيقته بعيدة عنه . . .
نهض هلعاً وراح ينصت . . .
المكان هادئ - اعتراه الخوف ،
يتصعب عرقاً ساخناً وبارداً ؛
قام ، وغادر الخيمة ،
يجول حول العربات ، يبدو مخيفاً ،
ساكن كل شيء ، والحقول صامتة ؛
ومظلمة ؛ فقد غاب القمر خلف الضباب ،
ومن النجوم ينبلج بالكاد ضوء شاحب شحيح ،
ويظهر على الندى اثر خفيف
يؤدى الى ما وراء التل البعيد :
يسير مسرعاً ، صبره قد نفذ ،
الى حيث يقوده الاثر المشؤم .

فى نهاية الطريق قبر
يلوح أمامه بلونه الأبيض . . .
الى هناك قدميه الواهنتين
يجرهما ، ويضنيه هاجس ،
شفتاه ترتعشان ، ركبته تترعدان ،
مازال سائراً . . . وفجأة . . . أم أن هذا حلم ؟
فجأة يرى شيخ جسدين متلاصقين

ويسمع همسا قريبا -
فوق قبر العار والخزي .

الصوت الاول
- حان الوقت كي أنصرف . . .

الصوت الثاني
- انتظري . . .

الصوت الاول
- حان الوقت ، يا حبيبي .

الصوت الثاني
- لا ، لا ، تمهلي ، فلننتظر بزوغ الصباح .

الصوت الاول
- تأخر الوقت .

الصوت الثاني
- كم تحبين بوجل .
دقيقة !

الصوت الاول

- ستقضى على .

الصوت الثانى

- دقيقة !

الصوت الاول

- ماذا لو أثناء غيابى
افاق زوجى ؟

أليكو

- ها قد أفقت .
الى أين ! لاتسرعان كلاكما ،
تسعدان عند القبر ، حتى هنا .

زمفيرا

- صديقى ، أجر ، أهرب . . .

اليكو

- قف !
الى أين ، أيها الشاب الوسيم ؟
أرقد !
(يغمد أليكو سكيناً فى جسد الشاب الفجرى .)

زمفيرا

- أليكو !

الشاب الفجرى

- إنى أموت . . .

زمفيرا

- أليكو ، أنت تقتله !

انظر : لقد تلطخت كلك بالدماء !

أواه ، ماذا فعلت ؟

أليكو

- لا شئ .

والآن تنسمى حبه .

زمفيرا

- لا ، كفاك ، لم أعد أخشاك ! -

إنى أحتقر وعيدك ،

وألعن جريمتك الشنعاء . . .

أليكو

- موتى أنت أيضا !

(يطعنها .)

زمفيرا

- أموت وأنا أهواه . . .

- - - - -

الشرق ، يضيئه الفجر ،

فيتألق . أليكو خلف التل ،

والخنجر فى يده ، ملطخ بالدم
يجلس على حجر القبر .
الجثتان ملقتان امامه ؛
وجه القاتل يبدو مخيفا .
أحاطوه الغجر وجلون
واحتشدوا حوله منزعجون .
بالقرب قبرا يحفرون .
يتعاقبن الزوجات حزينات
ويضعن فوق أعين الجثتين القبلات .
يجلس الأب العجوز وحيدا ،
فى القتيلة المسجاة يحملق
لقد أصابه الحزن بشكّله الأخرس .
بينما رفعوا الجثتين ، حملوهما ،
وفى حضن الارض البارد انزلوهما ،
وأرقدوا زوج الشباب .
أليكو من بعيد يرقبهما
يشاهد كل شئ . . . وعندما دفنوهما ،
واخر حفنة تراب أهالوها عليهما ،
فى صمت وبطء انحنى
ومن فوق الحجر على العشب هوى .

عندئذ تقدم العجوز من أليكو وقال :
- " أرحل عنا ، أيها المتعال ؛

نحن قوم فطريون ؛ وليس لدينا اى قانون ،
 لانعذب ، ولا نشنق الآدميين -
 لا حاجة لنا بالدم والأنين -
 ولكن لا نريد أن يحيا معنا قاتل أثيم ...
 أنت لم تُخلق للحياة البدائية ،
 انت تريد لك وحدك الحرية ؛
 صوتك سيكون مفزعا بالنسبة لنا :
 لأن من صفاتنا الطيبة والوجل
 وأنت شرير جريء - أتركنا وأرحل ،
 وداعا ، ولتكن السلامة رفيقا لك ."

قال ذلك - ثم فى حشد صاخب
 تحرك مخيم الغجر الرحالة
 من وادى المبيت الرهيب .
 وسرعان ما فى السهول على بعد
 اختفى كل شئ ، عدا عربة واحدة ،
 يغطيها بساط بال حقير ،
 تقف فى ساحة المصير .
 كذلك يحدث أحيانا قبيل الشتاء
 فى الصباح المملوء بالضباب ،
 عندما يرتفع محلقا فوق السهوب
 سرب متأخر لطائر الغرنوق
 يحلق ويصبح متجها الى الجنوب ،

يحدث أن يبقى احد الغرائيق
 حزينا ، وهو برصاصة قاتلة قد أصيب
 والى جواره أرخى جناحه الجريح .
 هبط الليل ؛ داخل العربة المظلمة
 لم يوقد أحد النار ،
 وتحت سقف العربة المتحرك
 لم تعرف عين النوم حتى الصباح .

خاتمة

بقوة الشعر الساحرة
 فى ذاكرتى الضبابية
 لشد ماتصحو الذكريات
 لأيام حزينة ، وأخرى رائعة .

فى هذا البلد ، حيث لزمن مديد
 لم يخفت صدى العراك الرهيب ،
 حيث قد أمُليّت الحدود
 وفرضها الروس على استنامبول ،
 حيث صقرنا القديم ذو الرأس المزدوج (*)
 مازال يضح بمجد السلف ،
 وسط سهوب هذا البلد
 عند مشارف المعسكرات القديمة

(*) شعار الدولة لروسيا وجيوشها فى ذلك الوقت . (المترجم) . -٦٧-

صادفت عربات للغجر مستكينة ،
ابناء الحرية الوديعة .
خلف جموعهم الكسالى
كثيرا ما طفت فى الصحارى ،
قاسمتهم طعام من الابهة خالى
وامام مواقدهم نمت الليالى .
اثناء ترحالهم البطئ أحببت
الصدى المرح لغناءهم -
واسم ماريولا الحبيبة
لزمى طويل تذكرت ورددت .

وليس للسعادة بينكم أيضا مكان ،
يا أبناء الطبيعة البؤساء . . .
وتحت خيمكم الممزقة
تعيش أيضا الأحلام المفلقة ،
وتعريشاتكم المتنقلة
فى البوادي ، لم تنجكم من الويلات ،
فالرغبات المحتومة فى كل مكان ،
ولا دافع للقدر مهما كان .

١٨٢٤

« ليالى مصرية »

(قصة لم تكتمل . . .)

كليوباترا . . ليالى مصرية (قصة لم تكتمل)

هذه القصة الشيقة . . لم تكتمل . . (١)

كان بوشكين ، شاعر روسيا الأكبر تراوده من وقت لآخر فكرة الكتابة عن كليوباترا وفط حياتها المتحرر من كل قيد إلى حد الانحلال . ففي عام ١٨٢٤ كتب قصيدة بعنوان " كليوباترا " ثم أعاد صياغتها فى عام ١٨٢٨ ، ثم استخدم هذه الأشعار فى قصة " ليالى مصرية " على لسان الشاعر الايطالى المرتجل . ويثبت الباحثون الروس أن بوشكين كان ينوى أن يُضمّن " ليالى مصرية " ما كتبه عن كليوباترا شعراً بعنوان " ايزنسكى " ونثراً بعنوان " أمضينا المساء فى البيت الريفى " .

ومنذ السطور الأولى فى القصة يستشعر القارئ الضجر الذى يملأ نفس بوشكين من القيود التى تكبله . فنراه يعتبر موهبة كتابة الشعر التى وهبها الله لبطله الشاعر - " آفة " يجب أن ينفيها عن نفسه كلما وكيفما أمكن - وهو يصف بأسلوب ساخر ما يتعرض له الشعراء من قيود فى المجتمع . وسيجد القارئ أن الموضوع الذى اختاره تشاوسكى ليطرحه على الشاعر الايطالى المرتجل ذو دلالة هامة : فهو يتعلق بحرية الشاعر فى أن يختار الموضوعات التى يكتب عنها ، وعبراً على لسان الشاعر الايطالى تعبيراً بليغاً جميلاً بهذا الشأن . فهو يريد للشاعر فى

(١) نشرت ترجمه هذه القصة الى اللغة العربية لأول مرة فى المجلة الثقافية اللبنانية " الطريق " العدد الثانى لعام ١٩٧٩ لنفس المترجم .

الكتابة تلك الحرية التى تتمتع بها " الريح " فى أن تهب فى المكان الذى تشاء لتحرك ماتشاء دون سواه ، وحرية " الصقر المهيّب المخيف " أن يقف " على ما يريد وإن كان " جذع شجرة ذابل " تاركا " أعالى الجبال والابراج " ، وحرية قلب ديدمونة فى أن تختار مايراه الجميع غير مناسب لها " ذلك العبد الأسود " .

ومن المحتمل أن تكون شخصية الشاعر - المرتجل مستوحاة من انطباعات بوشكين عن الشاعر الألمانى المرتجل ماكس لانجيشفارتس الذى قام بجولة فنية فى روسيا عام ١٨٣٢ . وكانت موهبة ارتجال الشعر موجودة ايضا فى شاعر هولندى يعرفه بوشكين جيدا هو آدم ميتشكيفيتش .

وواضح أن بوشكين قد أدخل جوانب من مظاهر حياته هو فى شخصية الشاعر تشارسكى ويسهل أن نلاحظ أن تشارسكى فى هذه القصة وأليكو فى " الفجر " يجمعهما التمرد على قيود الحياة الاجتماعية الزائفة فى المدن والسخرية منها .

نشرت القصة لأول مرة ، بعد وفاة بوشكين ، فى مجلة "سوفرمينيك" العدد الثامن عام ١٨٢٧ .

الجزء الأول

"ما هوية هذا الرجل" ؟

- أنه موهبة كبيرة ، يصنع من صوته أى شئ يريد .
- كان من الاجدى له ياسيدتى ، ان يصنع منه لنفسه سروالا .

(نقلًا عن اللغة الفرنسية من كتاب المركيز ببيشر " مختارات من الجناس " -
(١٧٧١).

تشارسكى احد سكان بطرسبورج الاصليين ، لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره ، أعزب . كانت وظيفته لاتسبب له ارهاقا . وفى ايام العز ترك له المرحوم غمه ، الذى كان يشغل منصب نائب المحافظ ، ضيعة تدر له دخلاً لا بأس به . كان من الممكن ان تكون حياته بهيجة للغاية لو لم تكن لديه آفة كتابة الشعر ونشرة . كان يدعى فى المجلات بالشاعر ، وبين البسطاء بنظام الشعر .

وعلى الرغم من الامتيازات العظيمة التى يتمتع بها الشعراء (وللحق : نحن لانرى ان الشعراء فى روسيا يتمتعون بأية امتيازات خاصة اكثر من حقهم فى وضع الكلمة فى " حالة المفعول به " بدلا من حالة " المضاف اليه " ، وكذلك بعض ما يعرف بالتححرر من القيود فى الشعر) - على اية حال ، وبغض النظر عن اية امتيازات ، فان هؤلاء الناس يتعرضون لاضرار ومضايقات جسيمة . وربما يكون اللقب او الصفة التى تلتصق بالشاعر ولا تسقط عنه ابدًا هى اكثر المصائب مرارة واعظم جسامة . الجمهور ينظر اليه كشئ يمتلكه لاعتقاده انه انما وجدَ لافادته وتسليته . . فما أن يعود الشاعر من قريته حتى يبادره أول

شخص يلقاه بالسؤال : ألم تُحضر لنا معك شيئا جديدا ؟ وما ان يبدأ فى تأمل أموره المختلفة ، أو يشرع فى التفكير فى مرض عزيز عليه ، حتى تصاحب ابتسامه سخيطة صريحة مسخيفة ايضا : لعلكم تؤلفون شيئا ما ، وما ان يقع فى الحب (وهو أمر مشكوك فى امكانية حدوثه) حتى تشتري فتاته لنفسها البوما من المحل الانجليزى وتنتظر حينذاك ان يكتب لها فيه مراثيات شعرية . وما ان يحضر الى شخص بصدد امر هام ، وهو لا يكاد يعرفه من قبل ، حتى يسارع هذا الرجل بدعوة ابنه ويرغمه على ان يقرأ ابياتا من شعر الشاعر ، فيستقبله الغلام مرحبا بقراءة قصائده وقد ابدع فى تشويها . . وهذه هى أزهار الحرفة اياه خسارة يمكن انتظارها بعد ؟ كان تشارسكى يعترف بانه ملّ التحيات والاستفسارات والمجاملات والغلمان الى حد انه يضطر كثيرا الى ان يمنع نفسه بالكاد عن غليظ القول .

بذل تشارسكى جهودا شتى ليزيل عن نفسه ذلك اللقب البغيض ، فكان يتجنب مجتمعات الادباء ويفضل عليها اوساط النبلاء ، حتى ولو كانوا اكثر الجميع تفاهة . كان حديثه شديد التفاهة ولا يتطرق مطلقا للادب ، وكان يتبع فى ملبسه احدث خطوط المودة بتهيب وحذر كشاب يحيا فى موسكو ويحضر الى بطرسبورج لأول مرة فى حياته .

فى حجرة مكتبه المرتبة كحجرة نوم سيدة ، لم يكن هناك اى شئ يمكن ان يشير الى انها حجرة كاتب ، والكتب ليست مبعثرة فوق الطاولات واسفلها ، والاركة ليست ملطخة بشتى ألوان الحبر ، ولا توجد تلك الفوضى التى تدل على وجود الهة الشعر والادب وعلى اختفاء الكنسة وفرشاة التنظيف . كان تشارسكى يشعر بالقنوط اذا ما ضبطه احد معارفه النبلاء ممسكا بريشة الكتابة فى يده . ويصعب

تصديق الى اى حد من صفائر الامور يمكن ان ينزلق انسان حبه
الطبيعة مثل هذه الموهبة ومثل تلك الروح : فكان يتظاهر تارة بأنه من
هواة الخيل ، وتارة اخرى بأنه مقامر متهور ، وتارة بأنه خبير حاذق فى
تذوق الطعام ، على الرغم من انه لم يكن يستطيع ان يميز بين الخيول
الجبليّة والعربيّة ، ولم يعرف مطلقا الورق الريح فى اللعب ، وكان فى
سريرة نفسه يفضل البطاطس المشوية على شتى مبتكرات المطبخ
الفرنسى . كانت حياته مشتتة للغاية ، يبقى طويلا فى جميع حفلات
الرقص ، يفرط فى الاكل فى جميع الولائم الدبلوماسية ، وكان وجوده
فى كل السهرات امرا لا مفر منه تماما مثل " جيلاتى ريزانوف " (١) .

ولكنه كان شاعرا ، ورغبته يتعذر كبحها . . وعندما كان يهبط
عليه " سقط الكلام " (هكذا كان يسمى الوحى) كان يغلق مكتبه
على نفسه ويكتب منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل ، كان
يعترف لاصدقائه الاوفياء انه حينذاك فقط يستشعر السعادة الحقيقية .
وفى الاوقات الاخرى كان يتنزه متصنعا منظر من لاصله له بالشعر ،
ويستمع فى كل دقيقة للسؤال المجيد : الم تكتب شيئا جديدا ؟

ذات صباح احس تشارسكى بذاك المزاج المبارك عندما ترسم الاحلام
بوضوح امامك ، وتجد كلمات حية تفاجئك لتجسّد رؤيتك ، عندما
تنساب ابيات الشعر تحت قلمك وتتلاقى الاوزان الرنانة مع الافكار
المرتبّة . كان تشارسكى مستغرقا فى نسيان للذيد . . لم يكن للعالم ،
ولا لفكرة العالم ، ولا لغراباته الخاصة اى وجود عنده . . كان يكتب
شعرا .

(١) نوع من الجيلاتى كان ينتجه مصنع ريزانوف للحلوى فى بطرسبورج (الترجم)

وفجأة صرَّ باب حجرتي واطل رأس غريب ، انتفض تشارسكى متجها ، وبامتعاظ سأل وهو يلعن فى نفسه خدمه ، الذين لايجلسون ابدا فى مدخل المنزل :

- من هناك ؟

دلف الى الحجرة شخص غريب .

كان رجلا طويل القامة ، نحيف القوام ، يناهز الثلاثين . كانت خطوط وجهه الاسمر مُعبّرة : جبهة طويلة شاحبة اللون تظللها خصلات من الشعر الاسود ، عينان سوداوان لامعتان ، انف معقوف ، لحية كثة تحيط بوجنتين غائرتين سمراوين بهما صُفرة ، كان كل ذلك ينطق بأن هذا الشخص اجنبى . كان مرتديا سترة سهرة سوداء اهترأت اماكن الخياطة فيها وينظلون صيفيا (مع ان طقسا خريفيا للغاية كان يسود فى هذا الوقت) . وكان فص من الماس الزائف يبرق فوق صدر قميص لونه ضارب الى الصفرة ، تدلت فوقه ربطه عنق بالية ، اما قبعته المتعرجة فقد عرفت على ما يبدو الطقس الصحو والجو الممطر . لو التقيت بهذا الانسان فى الغابة لاعتبرته قاطع طريق ، ولو التقيت به فى مجتمع ما لظننته متآمر سياسى ، ولو صادفته فى مدخل المنزل فستعتقد انه دجال يتاجر فى الاكسير والزرنخ .

- ماذا تريد ؟ سأل تشارسكى بالفرنسية .

فأجابه الاجنبى وهو ينحنى الى اسفل :

- سنيور ، أرجو المَعذرة اذا كنت . . .

لم يدعه تشارسكى للجلوس بل قام هو نفسه . استمر الحوار بينهما باللغة الايطالية .

قال الشخص الغريب :

- انا فنان من نابولى ، اضطررتنى الظروف ان اترك وطنى . وحضرت

الى روسيا آملاً فى موهبتى .

اعتقد تشارسكى ان هذا الشخص يعتزم تقديم عدة حفلات موسيقية للتشيلو ويقوم بتوزيع تذاكر الحفل على المنازل . حينئذ اراد تشارسكى ان يعطيه ورقة من فئة الخمسة وعشرين روبل ليتلخص منه باسرع مايمكن . الا ان الغريب اضاف قائلا :

- آمل ياسنيور ان تقدم لى معونة صديق لزميله ، وان تقودنى الى المنازل التى ترتادها .

لم يكن من الممكن الحاق اهانة ابلغ من ذلك بكبرياء تشارسكى . فرمق بغطرسة ذلك الذى سمى نفسه بزميله .

- اسمح لى ان اسالك من تكون ، ومن تعتبرنى ؟ - سألته تشارسكى وهو بالكاد يكبح جماح غضبه .

لاحظ القادم من نابولى تكدر تشارسكى ، فأجاب وهو يتلعثم :

- سنيور .. كنت أعتقد .. كنت أحسب . أرجو المَعذرة ياسموك ..

- ماذا تريد ؟ - أعاد تشارسكى سؤاله بطريقة جافة .

فأجاب الايطالى :

- سمعت كثيرا عن موهبتكم المذهلة ، وانا واثق ان السادة هنا

يعتبرونه شرفا ان يقدموا صنوف الرعاية لمثل هذا الشاعر الفذ ، ولذلك تجاسرت على المثول امامكم . . .

فقاطعه تشارسكى . . .

- لست على صواب ياسنيور ، لا يوجد عندنا لقب للشعراء ، ولا

يتمتع شعراؤنا برعاية السادة ، شعراؤنا أنفسهم سادة ، واذا كان حماة العلوم والفنون عندنا (عليهم اللعنة !) لا يعرفون ذلك ، فهذا شئ سئ

للغاية بالنسبة لهم ، لا يوجد عندنا قساوسة ثيابهم رثة بحيث يمكن لموسيقى ان يأخذهم من الشارع ليكتبوا له ليبرتو . الشعراء عندنا

لا ينتقلون من بيت الى بيت يستجدون المعونة لانفسهم . . على أى حال ، أخبروك باننى شاعر كبير من باب الدعابة على الاغلب . . حقا

لقد كتبت بعض الاشعار الهجائية القصيرة ، ولكنى ولله الحمد ، لا يجمعنى شئ بالسادة الشعراء ، ولا ارغب فى ذلك .

ارتبك الايطالى المسكين . نظر حوله ، اذهلته اللوحات والتماثيل الرخامية والقطع البرونزية ، واللعب الثمينة المتناثرة فوق طاولات الكتب ذات الطراز القوطى . لقد فهم انه لا يوجد شئ مشترك بين ذلك المتأنق المتغطرس ، الواقف امامه فى قلنسوة من الحرير المقصب ذات ذؤابة ، ورداء ذهبى اللون يحيط خاصرته نطاق تركى ، وبينه هو الفنان المسكين المتجول ذو رباط العنق البالى والسترة الكالحة .

تَنَوَّه ببطع كلمات اعتذار لا رابط بينها ، وانحنى وهمّ بالانصراف . أثر منظره البائس فى تشارسكى ، الذى يملك - على الرغم من صغار طبعه - قلبا عطوفا خيرا . لقد احس بالخجل من سورة كبريائه .

قال تشارسكى للايطالى :

- الى اين انت ذاهب ؟ انتظر . . . كان على ان انفض عن نفسى لقبها لست جديرا به وان اعترف لك بأننى لست شاعرا . فلنتحدث الان عن امورك . انا مستعد لخدمتك . على ان يكون ذلك فى الحدود الممكنة . . . هل انت موسيقى ؟

اجاب الايطالى :

- لا ياسيدى أنا مجرد شاعر مرتجل مسكين .

صاح تشارسكى وقد شعر بمدى قسوة معاملته :

- شاعر مرتجل ! ولماذا لم تقل من قبل انك شاعر مرتجل ؟

وشد تشارسكى على يده معبرا عن ندمه الصادق .

تشجع الايطالى لما بدا فى مظهر تشارسكى من ود واستقامة بسلامة نيته فى الحديث عن تصوراتهِ . هيئته ليست خَدَّاعة ، كان فى حاجة الى نقود ، وكان يأمل ان يُحسِّن فى روسيا ، بطريقة او بأخرى ، احواله المنزلية . استمع اليه تشارسكى بانتباه .

قال تشارسكى للفنان البائس :

- أمل ان يحالفك النجاح ، لم يستمع المجتمع هنا الى شاعر مرتجل من قبل . ستثير الفضول ، حقيقة ان اللغة الايطالية لاتستخدم عندنا ، ولن يفهمك احد ؛ إلا ان ذلك ليس بكارثة ؛ المهم ان تكون حديث الساعة .

قال مرتجل الشعر مستغرقا فى التفكير :

- ولكن مادام لايفهم احد عندكم اللغة الايطالية . فمن سيأتى ليسمعنى ؟

- سيأتون . . لاتخاف ؛ البعض بدافع الفضول ، وآخرون لتمضية الامسية بأى طريقة ، وغيرهم ليظهروا انهم يفهمون الايطالية ؛ أكرر لك ان ما يلزم فقط هو ان تكون حديث الساعة ، وستكون كذلك . . ها هى يدى لك .

ودع تشارسكى مرتجل الشعر بمودة بعد ان اخذ منه عنوانه . وفى المساء نفسه انطلق يسعى من اجله .

الجزء الثانى

" انا قيصر ، انا عبد ، انا دودة ، انا اله " .

(من القصيدة الثورية " الاله " - لدرجافين / ١٧٨٤)

فى اليوم التالى وفى ممر معتم ومتسخ لاحد الفنادق كان تشارسكى يبحث عن الحجرة رقم ٣٥ . توقف عند باب الحجرة وطرقه .
فتح الباب ايطالى البارحة .
قال له تشارسكى :

- النصر ! كل شئ على مايرام . ستعطيك الأميرة (. . .)
قاعتها . وتمكنت بالامس فى حفل استقبال ان استميل نصف
بطرسبورج ؛ اطبع التذاكر والاعلانات . أنا أضمن لك ان لم يكن النجاح
الباهر ، فعلى الاقل الربح .
- وهذا هو المهم ! صاح الايطالى معبرا عن سعادته بحركات مليئة
بالحيوية ومميزة لجنته من اهل الجنوب .
- كنت اعرف انك ستساعدنى . بالليشيطان ! انت شاعر مثلى تماما ؛
ومهما تضاربت الاقويل عن الشعراء فانهم فتيان ظرفاء ! كيف لى ان
اظهر لك امتنانى ؟ انتظر . . . أترغب فى الاستماع الى شعر مرتجل ؟
- شعر مرتجل ! . . . وهل بإمكانك ان تستغنى عن الجمهور والموسيقى
ودوى التصفيق ؟
- كل ذلك هراء ، هراء ! اين لى بجمهور افضل منك ؟ انت شاعر
وستفهمنى افضل منهم . ان استحسانك الهادئ اغلنى عندي من عاصفة
من التصفيق . . . اجلس حيث تريد واطرح على موضوعا .

جلس تشارسكى على حقيبة . . (احد المقعدين الموجودين فى
المكان المتواضع كان مكسورا والثانى محمل بالاوراق والملابس
الداخلية). أخذ المرتجل جيتاره من فوق الطاولة ووقف امام تشارسكى
يداعب أوتار الجيتار باصابع نحيلة ، منتظرا ماسيطله .

- ها هو موضوع لك ، قال تشارسكى : - " الشاعر يختار بنفسه
موضوعات اغانيه ، وليس للجمهور الحق فى توجيه وحيه " .

لمعت عينا الايطالى عزف بعض الايقاعات ، رفع رأسه بكبرياء ، ثم
اخذت مقاطع الشعر الملتهبة تنساب من بين شفتيه مُعبّرة عن احساس

خاطف . وها هي ابيات الشعر كما نقلها احد اصدقائنا بصورة غير دقيقة
عما تبقى منها في ذاكرة تشارسكى :

- بجفون مفتوحة

كان الشاعر يسير . . لكن لا يرى احدا
وثناء ذلك . .

ومن طرف ملاپسه . . جذبه احد المارة
- " ألا أخبرتنى : لماذا تسير بدون هدف ؟

ما ان وصلت الى القمة
حتى اخذت تخفض بصرك نحو الوادى

ساعيا للهبوط الى اسفل
تنظر الى العالم المتناسق نظرة ملؤها القتامة
روحك يضنيها تأجج لامثيل له
ودائما . . تزعجك وتجذبك

توافه الامور
على العبقري ان يحث السعى نحو السماء
والشاعر الاصيل

ملزم ان يختار لما يستوحيه من ترانيم
اسمى الموضوعات "

- لماذا تدور الريح فى وهدة الوادى
ترفع الاوراق وتحمل الغبار
عندما يكون الزورق فى الماء الساكن
منتظرا هبوبها بلهفة ؟

لماذا يطير الصقر مهيبا مخيفا
من اعالى الجبال مارا بالابراج

نحو جذع شجرة ذابل ؟
الا فاسأله .

لماذا احبت الشابة ديدمونة
ذلك العبد الاسود ؟

كيف يحب الهلال . . سديم الليل ؟
ذلك لانه ليس للرياح ولا للصقر ،
ولا لقلب العذراء قانون . . .

هكذا الشاعر

مثل الرياح الشمالية

تحمل ما تريده

تطير مثل الصقر

ولا تسأل احدا

كيف اختارت ديدمونة معبودا لقلبها .

سكت الايطالى فى حين كان تشارسكى صامتا يعتريه الدهول
والتأثر .

- ما رأيك ؟ - سأل مرتجل الشعر .

جذبه تشارسكى من يده وشد عليها بقوة .

- ماذا ؟ - سأل مرتجل الشعر - كيف كان الحال ؟

اجاب الشاعر تشارسكى :

- مدهش ! كيف تسنى لك هذا ؟ ما ان لامست مسامعك فكرة
شخص غيرك حتى أصبحت وكأنها فكرتك انت ، وبدا كما لو كنت مولعا
بها لقلبها وتطورها بلا انقطاع . اذن انت لاتعانى جهدا ولا يعترض
سبيلك ما يسبق الوحى عادة من برودة وقلق ! شئ مدهش .. مدهش.

اجاب مرتجل الشعر :

- لكل موهبة سرها . فمثلا كيف يتاح للنحات ان يرى "جوبيتر" (١)
مختفيا فى قطعة من الرخام الكراى (٢) ، فيخرجه الى الوجود عندما
يفتت غلافه بالازميل والمطرقة ؟ ولماذا تخرج الفكرة من رأس الشاعر
مزودة بأربع قواف وموزونة فى تفعيلات منسجمة ومتشابهة ؟ - هذا ،
ولا يمكن لاحد غير الشاعر المرتجل نفسه ان يفهم مثل هذه السرعة فى
توارد الانطباعات ، ومثل هذه الصلة الوثيقة بين الهامك الخاص وبين
الارادة الظاهرية لغيرك - ولو وددت انا شخصا ان افسر ذلك لكان
الاخفاق من نصيبى . . على اية حال . . علينا ان نفكر فى حفلى
الاول. ما رأيك ؟ ماهو السعر الذى يمكننى تحديده للتذكرة على الا
يرهق الجمهور وفى نفس الوقت لايلحق بى خسارة ؟ يقولون ان سنيورة
كاتالانى (٣) كانت تتقاضى ٢٥ روبلا ثمننا للتذكرة ؟ سعر حسن .

لم يشعر تشارسكى بالارتياح ، اذ وجد نفسه فجأة يهوى من قمة
الشعر الى أسفل مقعد لكاتب حسابات . . ولكنه كان يفهم جيدا
ضرورات الحياة فهبط مع الايطالى الى الحسابات التجارية . وفى هذا
الموقف أظهر الايطالى جشعا فاحشا وحبا فطريا للريح الى حد ان
تشارسكى اشماز منه وسارع الى تركه حتى لايفقد تماما شعور البهجة
الذى وكّده عنده مرتجل الشعر الرائع . لم يلحظ الايطالى الملتهى هذا
التغيير ، وودع تشارسكى حتى الممر ، حتى الدرج ، وهو ينحنى الى
اسفل ويؤكد له عرفانه بالجميل الى الابد .

(١) اله السماء والضوء والمطر عند الاغريق والرومان (المترجم)

(٢) نوع من الرخام رفيع الجودة يستخرج فى بلدة كراى بايطاليا (المترجم) .

(٣) المجيل كاتالانى (١٧٨٠ - ١٨٤٩) مغنية ايطالية مشهورة ، قامت بهجوله
فنية فى بطرسبورج فى عشرينات القرن التاسع عشر .

الجزء الثالث

"نمن التذكرة الواحدة عشرة روبلات ، يبدأ الحفل الساعة السابعة ."
(اعلان)

وضعت صالة الاميرة (. . .) تحت تصرف الشاعر المرحل ، حيث اقيمت خشبة المسرح وصُفَّت المقاعد فى اثنى عشر صفا . كما تم اضاءة القاعة فى اليوم المحدد ابتداء من الساعة السابعة مساء . وامام طاولة بيع التذاكر جلست سيدة عجوز ذات انف طويل ، ترتدى قبعة رمادية مزينة بريشات مشقوقة وتضع الخواتم فى جميع اصابع يدها . وعند المدخل اصطف الحراس .

بدأ الجمهور يتوافد ، وكان تشارسكى من اوائل الذين وصلوا الى المكان . فقد ساهم بقسط كبير فى النجاح العرض وود لو يرى الشاعر المرحل ليعرف ان كان راضيا عن كل شئ .

فى حجرة جانبية صغيرة وجد تشارسكى ان الايطالى ينظر بقلق الى الساعة مرتديا ملبسه على الطريقة المسرحية ، اللون الاسود يكسوه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ياقة قميصه المحلاة بالدانتيلامثنية ، لون ابيض غريب يميز رقبته العارية عن ذقنه السوداء الكثة ، خصلات من شعره تنسدل على جبينه وحواجه . كل ذلك لم يرق لتشارسكى ، ولم يطب له ان يرى شاعرا فى لباس ساحر متجول . . . بعد حديث قصير معه عاد تشارسكى الى القاعة التى أخذت تمتلئ رويدا رويدا بالجمهور .

وسرعان ماشُغلت المقاعد بسيدات متألمات ، بينما اصطف الرجال على شكل اطار حدوده المسرح والجدران والقاعة الخلفية .

شغل الموسيقيون وحاملات نوتاتهم جانبي خشبة المسرح ، وفى وسطها وضعت طاولة وفوقها اناء من الخنزف . جمهور غفير يملأ القاعة والجميع ينتظرون البداية بلهفة ، واخيرا فى السابعة والنصف ، بدأت الحركة تدب بين الموسيقيين واخذوا يجهزون اقواس الانهم ثم عزفوا الافتتاحية الموسيقية لـ " تانكريد " (١) . اخذ كل شئ الى الصمت عزفت النغمات الاخيرة من المقدمة الموسيقية . . وتقدم المرجل الى حافة خشبة المسرح وهو ينحن الى اسفل ، بين دوى تصفيق حاد فى كل ارجاء القاعة .

كان تشارسكى ينتظر بقلق تأثير الدقيقة الاولى على الجمهور ، الا انه لاحظ ان اللباس الذى بدا له غير مناسب على الاطلاق لم يترك نفس الانطباع لدى الجمهور ، بل ان تشارسكى ذاته لم يجد فى هيئة الايطالى ، الواقف على خشبة المسرح بوجهه الشاحب وقد سلطت عليه الاضواء من العديد من اللمبات والشموع ، شيئا مثيرا للسخرية . هذا التصفيق وتوقف اللفظ . . . تحدث الايطالى بلغة فرنسية ركيكة وطلب من السادة الحاضرين تحديد عدة موضوعات يكتبونها على وريقات خاصة . نظر الجميع كل الى الاخر فى صمت لدى استماعهم الى هذه الدعوة المفاجئة ، ولم يجب احد بشئ ، انتظر الايطالى برهة ، ثم أعاد رجاء بصوت وجل وكسير .

كان تشارسكى واقفا عند خشبة المسرح مباشرة . قلقة القلق ، وخالجه شعور بأن الامر فى حاجة لتدخله ، وأنه حتما سيضطّر الى تقديم موضوعه . وبالفعل استدارت رؤوس بعض السيدات اليه واخذوا يحثونه بصوت منخفض ، فى بداية الامر ، ثم اخذ يتعالى ويتعالى . عندما

(١) أوبرا "تانكريد" لـ "روسيني" (١٨١٣) . موضوعها مأخوذ عن تراجيديا فولتير المعروفة بنفس الاسم (١٧٦٠) .

سمع الشاعر المرتجل اسم تشارسكى بحث عنه بعينه عند قدميه ثم ناوله قلمًا من الرصاص وقصاصه ورق وهو يبتسم له بود . بدا لتشارسكى ان القيام بدور فى هذه الكوميديا شئ غير مريح ، ولكن لم يكن بيده شئ . اخذ القلم والورقة من يد الايطالى وكتب بضع كلمات . تناول الايطالى الائناء الخزفى من فوق المنضدة وهبط من فوق خشبة المسرح ، ثم قدمها الى تشارسكى الذى القى فيها بموضوعه مكتوبا . . هذا حذوه الآخرون ؛ ورأى صحفيان يشتغلان بالادب انه لزاما عليهما ان يكتب كل منهما موضوعا ، كما وضع سكرتير سفارة نابولى وشاب عائد للتو من رحلة من الخارج ورقتين مطويتين فى اثناء الاقتراع بينما كانا يتحدثان عن فلورنسيا (١) ، واخيرا كتبت فتاة غير جميلة وفقا لامر والدتها بضعة اسطر بالايطالية ، وكانت عينها مليئت بالدموع وتشوب اذنيها حمرة . تقدمت واعطت الورقة للمرتجل . فى هذه الاثناء كانت النسوة ينظرن اليها بصمت مشوب بسخرية طفيفة . بعد ان عاد الشاعر المرتجل الى خشبة المسرح وضع اثناء الاقتراع على الطاولة واخذ يخرج الوريقات منها الواحدة تلو الاخرى . وهو يقرأ بصوت مسموع :

- " عائلة تشنتشى " (٢)

-
- (١) فلورنسيا مدينة فى وسط ايطاليا تعتبر من اهم المراكز الاقتصادية والثقافية. كانت تلعب الدور القىادى فى حركة النهضة الايطالية . عاش فيها دانتى وليونارد دافينشى ، مايكل المجلو ، ميكافيللى .. وغيرهم .. (المترجم) .
- (٢) اسرة رومانية معروفة عاشت فى القرن السادس عشر ، رب هذه الاسرة فرانتشيسكو تشنتشى ارتكب العديد من الجرائم البشعة وقتله افراد اسرته بعد ان لم يعد باستطاعتهم ان يحتملوا العذاب ، فى عام ١٥٩٩ اصدرت المحكمة البابوية حكما بالاعدام بعد التعذيب القاسى ، على كل من ابنه وابنته وزوجته الثانية . تاريخ هذه الاسرة هو اساس هذه الدراما الشهيرة « تشنتشى » (١٨١٩) للشاعر الانجليزى برس بيش شيللى .

- " اخر يوم فى بومباى " (١)
- " عشاق كليوباترا "
- " الربيع من وراء القضبان " (٢)
- " انتصار تاسو " (٣)
- بماذا يأمر الجمهور الميجل ؟ سأل الايطالى بانكسار - هل تحددون لى بانفسكم احد المواضيع المقترحة ، ام نترك حسم هذا الموضوع للقرعة ؟ .
- القرعة - قال صوت احد الحاضرين .
- وكرر باقى الجمهور :
- القرعة ، القرعة !

-
- (١) المقصود بهذا الموضوع غالبا ، هى لوحة كارل بتروفيتش بربلوف (١٧٩٩ - ١٨٥٢) التى عرضت فى بطرسبورج عام ١٨٣٤ - وبومباى هى مدينة فى روما القديمة تهدمت بعد انفجار بركان فيزوفيا فى اغسطس عام ٧٩ بعد الميلاد . واسفرت حملات التنقيب الى اخذت تحرى منذ منتصف القرن الثامن عشر عن اكتشاف الجزء الأكبر من المدينة القديمة . وتعتبر بومباى اهم مصدر للمعلومات عن اقتصاد وحياة وثقافة وفنون الامبراطورية الرومانية فى القرن الاول من العصر الحالى . (المترجم) .
 - (٢) على الارجح ان هذا الموضوع مستوحى من احد مشاهد الكتاب الشهير فى ذلك الوقت « زنزانتى » ١٨٣٢ لسلفيوليكيو - الكاتب الايطالى والشخصية السياسية (١٧٨٩ - ١٨٥٤) .
 - (٣) تروكفاتو تاسو : مات قبيل تتويجه المنتظر باكليل الغار فى كابتولى ، وكتب ك . ن. باتيوشكوف مرثية عن هذا الموضوع بعنوان « تاسو يحتضر » (١٨١٧) وتاسو شاعر ايطالى عاش فى القرن السادس عشر واثرا انتاجه تأثيرا كبيرا على أدب اوربا الغربية فى القرن ١٧ - ١٨ ، كتب عن شخصيته كل من جوته وبايرون . (المترجم) .

هبط الشاعر المرتجل مرة أخرى من فوق خشبة المسرح حاملا بيده اناء -
الاقتراع ثم سأل :

- من يتفضل بسحب موضوع ؟

تطلع الشاعر المرتجل بنظرة ضارعة الى الصفوف الاولى ، ولكن هذه
النظرة لم تترك أى تأثير فى السيدات المتأنقات الجالسات فى هذه
الاماكن وعلى ما يبدو فان المرتجل ، الذى لم يعتد على لامبالاة اهل
الشمال كان متألما . . وفجأة لاحظ من جانب القاعة يدا صغيرة ممتدة فى
قفاز أبيض . انجذ اليها بحماس واقترب من سيدة شابة جميلة وقورة
المظهر كانت تجلس على طرف الصف الثانى . ووقفت السيدة دون أى
ارتباك وبكل بساطة مدت يدا ارستقراطية فى اناء القرعة وسحبت ورقة
مطوية .

وقال لها المرتجل :

- الا تفضلت بفضها وقراءتها ؟

فتحت السيدة الجميلة الوريقة وقرأت بصوت مسموع :

- " عشاق كليوباترا " .

على الرغم من انها نطقت هذه الكلمات بصوت خافت ، الا ان الصمت
الذى ساد القاعة فى هذا الوقت ، جعل الجميع يسمعونها . انحنى المرتجل
بشدة الى اسفل للسيدة الرائعة ، وكان الامتنان العميق لها باديا عليه ،
ثم عاد الى خشبة المسرح .

ثم قال متوجها للجمهور :

- ايها السادة احدثت لى القرعة كموضوع لشعري المرتجل " عشاق
كليوباترا " ارجو ان تتفضل الشخصية التى اختارت هذا الموضوع
وتوضح لى فكرتها ، عن اى عشاق يجرى الحديث هنا ، لانه كان لدى
القيصرة العظيمة الكثير منهم .

عند سماع هذه الكلمات ضج رجال كثيرون بالضحك . فارتبك المرتجل

قليلا ، ثم اكمل :

- كنت اتمنى ان اعرف الى اية خاصية تاريخية اشارت الشخصية التى اختارت هذا الموضوع . ساكون ممتنا للغاية لو تفضلت ووضحت ذلك .

لم يسارع احد بالاجابة . والتفتت بعض السيدات الى الفتاة غير الجميلة التى كتبت موضوعا بامر من والدتها . لاحظت الفتاة المسكينة هذا الانتباه غير المستحب فاضطربت الى درجة ان الدموع تعلقت باهدابها . . . لم يتمكن تشارسكى من احتمال هذا فتوجه الى المرجل متحدثا باللغة الايطالية :

- انا الذى اقترحت هذا الموضوع . كنت اقصد شهادة افرملى فيكتور^(١) . الذى كتب ان كليوباترا كانت حددت الموت ثمنا لحبها وانه بالفعل كان هناك عشاق لم يخيفهم مثل هذا الشرط ، ولم يحولهم عنها . . الا انى ارى ان الموضوع يصعب بعض الشئ . . الا اخترتم موضوعا آخر ؟

ولكن المرجل كان يشعر فعلا باقتراب اله الوحى . . اعطى الاشارة الى الموسيقيين لبدأوا العزف . . . امتقع وجهه بشكل مخيف وبدأ يرتجف كمن اصابته حمى . لمع فى عينيه بريق عجيب . ازاح بيده شعره الاسود وجفف بالمنديل جبينه العالى المكسو بحبات العرق . . وفجأة خطى الى الامام ثم عقد يديه على صدره . . سكنت الموسيقى . . وبدأ ارتجال الشعر :

(١) المقصود هنا احد مشاهد كتاب « عن مشاهير روما » الذى ينسب الى الكاتب والمؤرخ الرومانى سكست افرملى فيكتور (القرن الرابع بعد الميلاد) .

كان القصر مضيئاً ، تعلو فى صوت واحد
اصوات المغنيين على نغمات الفلوت والقيثارة
وكانت القيصرة بصوتها ونظراتها
تنعش وليمتها الفاخرة ،
القلوب تتدافع نحو عرشها ،
ولكن فجأة فى الكأس الذهبية
تأملت . . وللوادى
احنت راسها البديع . . .

بدت الوليمة الفاخرة كما لو كانت تغفو
الضيوف ساكنون ، جوقة الغناء صاحبة
الا أنها رفعت جبينها من جديد
وبشكل جلى قالت :
اذا كان فى حبى لكم نعيم ؟
فبامكانكم ان تشتروا هذا النعيم . .
اصفوا اذن الى :
العدالة سأقيمها بيننا
من سيتقدم الى صفقة الهوى ؟
ساعرض حبى للبيع
قولوا : من منكم سيشترى
ليلتى بحياته ؟

قالت ذلك - واستحوذ الذعر على الجميع .
ارتجفت القلوب من الخوف . .
وسرى تدمير وضيق

وقد خلعت كليوباترا عن وجهها البارد عذار الحياء
 وشملت بنظرة احتقار ،
 محبيها المحيطين بها . . .
 وفجأة يخرج شخص من بين الجمع ،
 وفى اثره اثنان اخران .
 يخطون فى شجاعة ، عيونهم صافية ،
 هبت للقائهم
 قضى الامر : بيعت ثلاث ليال
 وقرأش الموت يناديهم .

باركتهم الكهنة ،
 والان ، من وعاء اقتراح الموت
 امام الضيوف الساكنين
 تخرج القرعة بالدور .
 الاول - فلانى ، محارب شجاع
 تمس فى الحرس الرومانى
 لم يستطع ان يحتمل من زوجته
 احتقارها وغطرستها ،
 فلبى نداء المتعة ،
 كما كان يلبي ، ايام الحرب ،
 نداء المعارك الضارية .
 بعده يأتى كريتون ، حكيم شاب
 ولد فى أدغال أبيقور (١)

(١) أبيقور : فيلسوف اغريقى ماضى عاش فى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد .

لخاريتى (١) وكبريد (٢) وامور (٣)
 عاش كريتون عاشقا ومغنيا
 محببا للقلب وللعين
 كزهرة كرز لم تتفتح بعد
 اخرهم لم يذكر اسمه لاحد .
 خدوده تظللها برقة بواكير شعر خفيف ،
 كانت الحماسة تتقد فى مقلتيه
 وقوة الشهوة
 تحتدم فى قلبه الفتى . . .
 ونظرة حزينة ثبتتها عليه
 القيصرة المتكبرة :
 - اقسام . . . آه ، يا الهة المتعة
 سأقوم بخدمتك كما لم يحدث من قبل
 والى فراش الاغراء والرغبة
 سأصعد كما أجورة بسيطة .
 اصغى الى ياكبريدا الجبارة ،
 وانتم يا قياصرة العالم السفلى
 أو يا اله آييد (٤) الرهيب

-
- (١) خاريتى ، فى الاساطير اليونانية القديمة : ثلاث آلهة للمرح والفتنة والرشاقة .
 يصور عادة كثلاث نساء متشابهات .
 (٢) كبريد : من الاساطير اليونانية القديمة : احد اسماء افروديت (الهة الحب والجمال) .
 (٣) هو كيوبيد اله الحب ، فى الاساطير الرومانية القديمة : يقابله فى الاساطير اليونانية القديمة ايروت .
 (٤) آييد ، من الاساطير اليونانية القديمة : جوديس او بلوتون اله العالم السفلى ومملكة الاموات .

اقسم - حتى بزوغ الفجر
ان رغبات ملاكى
سأنهكها بشهوانية
ويكل اسرار القبل
ونعيمها الرائع سأشبعها
ولكن ما ان تبرق أورورا (١) الخالدة
فى رداء الصباح الارجوانى
اقسم - تحت مقصلة الموت
سينفصل رأس هؤلاء المحظوظين عن اجسادهم .
(١٨٣٥)

(الى هنا تنتهى منطوطة بوشكين لهذه
القصة التى لم تكتمل ..)

(١) أورورا ، فى الأساطير الرومانية القديمة : هى الهة الفجر التى تجلب الضوء للاله
والناس . وتُصوّر عادة كفتاة شابة ذات جناحين تصعد من المحيط على عربة مشدودة
إلى خيول فاتحة اللون .

المراجع

- ١- ف . ج . ب لينسكى . الاعمال الكاملة . الجزء السابع والتاسع . دار نشر "اكاديمية العلوم السوفيتية" ، موسكو ، ١٩٥٥ .
- ٢- أ . س . بوشكين . مختارات من اعماله . الجزء الاول دار نشر " المؤلفات الأدبية " ، موسكو ، ١٩٧٨ .
- ٣- ١ . س . بوشكين . مختارات من اعماله . الجزء الثانى . دار نشر " المؤلفات الادبية " ، موسكو ، ١٩٧٨ .
- ٤- ى . س . تورجينيف . مجموعة الأعمال ، الجزء الحادى عشر ، موسكو ، ١٩٥٦ .
- ٥- أ . ى . جرتش . الاعمال الكاملة . الجزء السابع دار نشر "اكاديمية العلوم السوفيتية" ، موسكو ، ١٩٥٦ .
- ٦- ن . ف . جوجول . الاعمال الكاملة . الجزء الثامن ، دار نشر "اكاديمية العلوم السوفيتية" ، ليننجراد ، ١٩٥٢ .
- ٧- ف . م . دستوفسكى . يوميات الكاتب . الاعمال الكاملة للمؤلفات الفنية . الجزء الحادى عشر ، موسكو - ليننجراد ، ١٩٢٩ .

فهرست

٣٠ - ٣	* تقديم
٤	* حول نشأة الشاعر
٦	* مرحلة الصبا
٧٠	* بداية حياته العملية فى بطرسبورج
٨	* فترة المنفى فى مدن الجنوب
١٠	* المنفى فى قرية " ميخايلوفسكايا "
١٦	* العودة إلى حياة الأضواء فى العاصمة
٢٠	* الحريف الأول فى قرية " بولدينو "
٢٢	* حياته الأسرية
٢٥	* الحريف الثانى فى قرية " بولدينو "
٢٦	* مرة أخرى فى " دوامة حياة الأضواء "
٢٩	* بأشعاره شيد لنفسه تمثالاً شامخاً
٣٠	* لماذا " الغجر " و " ليال مصرية " ؟
٣١	* الغجر - (قصة شعرية)
٣٢	* مقدمة
٣٥	* الشخصيات حسب ترتيب الظهور فى القصيدة
٦٧	* خاتمة
٧٠	* كليوباترا .. ليال مصرية (قصة لم تكتمل)
٧٠	* مقدمة
٧٢	* الجزء الأول
٧٨	* الجزء الثانى
٨٣	* الجزء الثالث
٩٣	* قائمة المراجع

كلمة شكر

أتوجه بالشكر لكل من قدم لى يد العون المادى
والمعنوى لاقتمام هذا الكتاب .

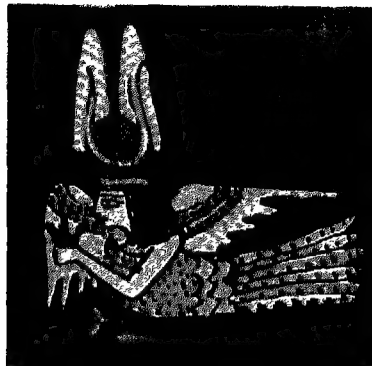
د. نهاد حسن إمام

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨

بيروت، ص ب ٨٠٩٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الغلاف للفنان حلمي التوني



الكسندر يوشكين

الفجر و ليالى مصرية

لقد استحوذ الكسندر سرجيفيتش يوشكين الشاعر الروسي الكبير على اهتمام المثقفين بصفة عامة ، والدارسين المتخصصين بصفة خاصة لما يتمتع به من موهبة نادرة ، تعيش ثمارها نضرة ، تسعد بها الأجيال عاش بتعداد السنين حياة قصيرة (١٧٩٩ - ١٨٣٧) ، ولكن بحجم إنتاجه وقيمة هذا الإنتاج لايزال يوشكين حتى حتى يومنا هذا ، ولا نوصف بالمبالغة لو توهمنا لاسمه أن يظل لأجيال قادمة فة شائعة من قم الفن صعبة المثال أو النيل ، ورمزا للسهل المتع في دنيا الشعر

وعلى الرغم من صعوبة ترجمة الشعر ، واختلاف وجهات النظر حول امكانية ترجمته من عدمها ، نجد إنه من واجبا ضرورة نقل المعرفة بصورة أو بأخرى ، مع الالتزام الكامل بالصدق مع الأعمال المقولة روحا ونصا

لماذا « الفجر » و « ليالى مصرية » ؟
لقد اخترنا أن يجمع كتاب واحد ترجمة القصة الشعرية « الفجر » والقصة التي لم تكتمل « ليالى مصرية » لوجود أكثر من شىء يجمعها أولا : فيها تظهر بوضوح احدى أهم « التيمات » التي سيطرت على فكر يوشكين واستحوذت على ملك إلهامه وهي « البحث عن الحرية » بشق أنوعها فأبطاله يتغنون بالحرية الفكرية والشخصية والاجتماعية السياسية كما تجمعها صفة أخرى مميزة لإنتاج يوشكين الأدبي ألا وهي العالمية وثالث ما يجمع هذين العاملين أن يوشكين بدأ كتابتها في نفس الفترة الزمنية تقريبا . بمعنى أنه بدأهما وهو تحت تأثير مزاج نفسى واحد ناتج من أحداث بذاتها . ففي عام ١٨٢٤ بينا يفعل يوشكين بالأحداث الثورية التي تجرى في اليونان وأسبانيا ، وبينما يتابع نمو الحركة الثورية بين الضباط النبلاء في جيش روسيا (حركة الديسمبريين) بدأ يكتب « الفجر » وقصيدة « كليوباترا » ، التي أعاد صياغتها فيما بعد ثم استخدمها بعد فترة في قصة « ليالى مصرية » .